صلاة لمقام التشوّف

مجموعة قصصية

فواز الحربي

دار المحرر الأدبي

obeikandl.com

obeikandl.com

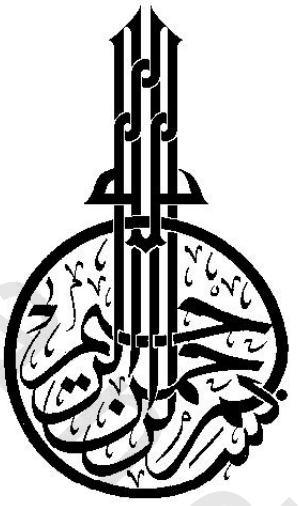

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء :

إلى عائلتي الصغيرة ..

إلى أمي .. فاطمة

إلى زوجتي أميرة ..

إلى ابنتي آواز ..

وإلى ابنتي روان

obeikandl.com

آن للبحر يعود ماؤه

أنا من سلالات الزنابق والمشانق
والريح تحبل ثمّ تنجبني
وترميني على كلّ الجهات

- ١ -

تمدّد حسين داخل الغرفة المربّعة البليدة إيقاعاً مؤسياً ، مصلوباً إلى انكساره الشخصي المستعاد ، غبّ انهيار تمّ في رابعة النهار ، الحياة تمضي عنه ليعيش زمنه المَعمّد بالنقص والانخداع ، تاركاً مشاعره لنوء زفر " بالعطالة لو تَشرخ الذاكرة كيما يضمّد أحاسيسه الكسيفة ! لكن هيهات ! هي .. ها .. ت للوراء يرجع الزمن ! "

الحائط يدنو ، ارتطم برأسه مرة ، مرة أخرى ، سال الدم المقهور على الجير الأبيض ..

- ماذا فعلتم بي !؟ ماذا فعلتم بي !؟

وحيداً كغصن مقطوع من شجرة تكوّم على نفسه في الزاوية ، هو الآن يبكي سلامه المفتقد ، ويرثي زمان ما قبل المعرفة .

" هذا الإحساس بالحزن عاوده ثلاثاً : الأولى آن وقف والده - الفلاح بالمحاصصة - بين يدي المالك ذليلاً ، الثانية ساعة ذهبت أمّه كي تعجن لبيت المختار ، والثالثة لحظة وقف بين يدي خديجة مرتبكا عاجزا عن البوح بمشاعره ".

obeikandl.com

- ٢ -

الـدرب طويلـة ، والعـراء المسـتلقي تحـت أشـعة الخريـف تتعكس في الأعصاب مخرزاً ، الحمار يسير أمامهما ، ومرافقه يحجـل بجانبـه ، التعـب يـزنّ في الأعضـاء ، ويهتـك المشـاعر المتناثرة خارج السياق ..

استاز .. أنت يرتاح عنا .. إن شاء اللّه أنت يرتـاح .. ، ..جـرس الـكلام غريب .. " لمَ يتكلّم بهذا الشـكل ! " تسـاءل ، أروقـة مديرية التربية في درعا

أوردة بـين القلـب والأمـاني النائيـات ، في الصبـاح تحملـه الصبوة على أجنحتها ، لكنّ البراعم تختنق إذ ينتهي الدوام من غير أن يحمل معه جديدا ، فبغوص في شروخه العميقة ، ويعود إلى البيت كسيفاً ..

" يُعـيّن السـيد حسـين ياسـين الطعمـة معلمـاً وكـيلاً ، و ... ويُحدّد مركز عمله في محافظة الحسكة "

تطامنت الأحلام للقطوف .. " هل جاء أوان الزيزفون البـريّ ! " تفكّـر ، والأمّ عـرس ريفـيّ جـذل .. " هـذا الإحسـاس بـالفرح عـــاود أمّـــه ثلاثـــاً ، الأولى آن اســـتلم والـــده أرضـــاً بالمحاصصـة ، الثانيـة وحسـين يـنجح في امتحـان الشـهادة الثانويـة ، والثالثـة لحظـة عـاد الأب مـن المدينـة يحمـل لهـا ثوباً جديدا ! "

وداعاً يا درعا ! يوغل طائر الهجرات شمالاً ، ونهباً لأحاسيس غافية كانت ثمّ ماجت وقف إلى نافذة القطار ، المشاهد القريبة تتسرب من بين ناظريه وتتلاشى ، أعمدة الكهرباء تتلاحق وتمضي ، الأودية والتلال والكثبان تتوحّد ، وتهبط – عميقاً – في بقاع النفس ، فيشبّ الحزن موجعاً ، سنوات العمر ظلّت وراءه ، أمّه الحزينة الفرحة ، شقيقته التي أدمنت أزقّة الحيّ ، وأهل البلد ، الأماسي الصيفية اللذيذة ، وكؤوس الشاي بالجوز تدور على السمّار ، الإسراء ترويحاً عن النفس ، وأباه الذي سامَرَ الصمت طويلاً ..

" لِمَ تبدو هذه الذكريات مورقة ، بهيّة كلّ هذا البهاء ، ؟ أهي الحقيقة ، أم هو الحنين والاشتياق والخيال الإنسانيّ !؟ ما ابتعدت بك الشقة بعد ولا الزمن ، فكيف إنِ حدث !؟ والحسكة هذه ! شمال الوطن ! والأكراد !؟ "

كلّ ما سمعه عنهم ينهض ..

استاز .. نحنا كسير " كثير" يحترم استاز ..

وقدة القيظ تنثال شواظاً فوق الرؤوس ماتزال ، على الرغم إيغال أيلول في نصفه الثاني ، والرجل يحرّك يديه بألفة من بينه وبين محدّثه مودّة قديمة ..

" هذا الرجل من يشبه !"

وصار السؤال ذبابة تطنّ في الرأس ، تأمّله مليّاً .. ..

" نعم .. نعم " .

وإذ اكتشف وجه الشبه ، فرشت الراحة مفرداتها على الملامح ..

" إنّه يشبه الوالد ! "

تساءل " أهي طريقة الكلام ، أم تلك الطيبة التي تمسح ملامح الشخصين ! عجيب ! حتى في أحلامه لم يتفكر بهذه المنطقة وأناسها الذين سمع عنهم الكثير ! " ولمّا تسلّم قرار التعيين ، استشف في عيون زملائه ما يشبه الإشفاق ، بل أنّ أذناه التقطتا كلمة " مسكين " !

" أكان ذلك للبعد !؟ " ضاعت نظراته في رهو الضوء ..

استاز ، نحن وصل ، هزي قريت .

كانا قد نهدا رابية ، ليجد القرية أمامه بغتة ، تأمّل في المنظر مليّاً ، البيوت تتناثر بفوضى مُحبّبة على جانبي الوادي ، والوادي قطعة زبرجد تتلوّى وتتشعّب ، بين شجيرات الرمان والتين ودواليات العنب ، غابت بعض البيوت فتيات ككاعبات تزيّنهنّ الأساور ، وعلى لوحة يتيمة ثُبّتت في الأرض كتبت كلمة " التنورية " بخطّ رديء !

مدفوعين بالفضول خرج الأهالي ، لحظات اللقاء تؤسّس لأحاسيس متناقضة ، تتراوح بين الفضول والحرج والرهبة !

سفوح طوروس تشمخ كحاجز عظيم ، ضرع مُتعدّد الرؤوس ينهض نحو السماء كحيوان خرافيّ يبعث على الدوار ..

" هذا هو الحدّ الشمالي للوطن إذن ! "

- ٣ -

كريح عاتية وحمقاء حلّت المصيبة ، وما كان التلاقي في حدود الإمكان ، ففرّت القيلولة وعولاً مذعورة ، ووقف مُحتجزاً في خانة الاحتباس الدهش ، ثمّة ما يميد تحت الأقدام مع خروج الأمور من دائرة الموضوعيّ ودخولها مدار الجنون ، ومض أشهب أفقده الرؤية للحظات ، كان الوجه الأنثويّ مُشوّهاً بشكل فظيع على أثر ضربة ، لابدّ وأنّ الفتاة كانت قد تلقّتها بأداة ما ، وتتابع موكب الجرحى ، وإذ تسيّد الصمت لغة ، تصاعد حسّ الغثيان ..

" هذا الإحساس بالغثيان عاوده ثلاثاً ، الأولى عندما أجبرته أمّه على تناول دواء شعبيّ طارد للديدان ، الثانية لحظة أفاق على لهاث والديه العاريين - ليلاً - في الغرفة الوحيدة، والثالثة ساعة انهالت عصيّ الدرك على ظهر أبيه لأنّ طالب بقطعة أرض كان قد اشتراها من المالك شفاهاً " والناس ولا أعجز ، دار على عقبيه هارباً من التّشظّي العصيّ على الرأب ، وأغلق الباب خلفه ..

لا أحد يعرف كيف أُفلت الحمار ، فاندفعت الأذهان إلى حافات الخلل ، وصار من الصعب - داخل حالة الانصعاق - السيطرة على الأعصاب الجامحة ، وكان أن انهال جاسم أحمد الحريبي بمشفره الحاد على قلب حمزة أحمي عباس ، ليضعه خارج قوس الحياة ، عويل المرأة كان نذيراً شال الوجل إلى الجهات الأربع ، وكحمحمة الموج المهاجم على الحصى تصادم الطرفان ، في اندفاعهما الجنونيّ نحو مصدر الاستغاثة، فانشبحت فوق الأفق خطوط الدمّ ، دوائر صغيرة كانت العيون المُحاصرة ثمّ اتّسعت الأحداق المزروعة بالرعب ، وهي تواجه الموت البارد عزلاء ، كلّ الطرق انعدمت كماء في التراب العطش ، مع الوحشية المفلتة من قمقمها العميق ، في لحظة لا تُفهم إلاّ بخصوصيّة المكان ، والميراث الثقيل ، الغبار يتلفّع بالدمّ ، والأرض فقدت توازنها ، حتّى لكأنّ كلّ ضباعها قد خرجت من أوجارها غضبى !

مُهاجماً بالكوابيس هو الآن ، الصفرة المرعبة هالة شاحبة تحيط بالوجه ، مخيف هو رعب الأطفال آن يتسرّب إلى الأعماق، واخزاً متألّماً راح القلب يدفدف ..

" هذا الإحساس بالرعب عاوده ثلاثاً ،الأولى وهو طفل يزور أحياء النازحين ، الثانية عندما قرأ في كتب التاريخ عن خيانة الملك عبد الله الأوّل ، والثالثة فيما الرصاص الفاروقي الغادر يرتدّ إلى صدور المصريين ".

بقايا الدمّ تجفّ على الحائط ، والأحمر القاني يسيل على جبهته ، وحيداً راح يختنق بحسّ الإثم المتضخّم ، معاتباً نفسه هامَسَها :

" وكأنّهم كانوا يهمسون لك من وراء زجاج ، كنت تكابر ! "

- لماذا لا يأتي هذا الطفل إلى المدرسة ؟!

" كان هذا في ماض قريب " الطفل كان في سنّ الدراسة ، فارتقى السؤال فتحة الفم ..

- استاذ ، هؤلاء ليس لديهم هُويات ، إنّهم أجانب !

الجواب زجاج ناعم ينفجر في الجوف نثاراً ، والنوم يعزّ ..

" لو الأسئلة تنام ! "

وسيسأل محتدّاً من جهل الطالب ، ولكنّ هذا سيكون في يوم آخر :

- أنت ابن فلاّح ، وتجهل أبسط المعلومات عن الزراعة ، ألا يملك أبوك أرضاً ؟!

وسيجيبه التلميذ مرتبكاً :

- استاذ ، هذه الأرض أخذتها الحكومة ، إنّها أملاك للدولة !

كمن تلقّى صفعة في ضوء الشمس سيتوقّف ملجوماً ، الطفولة لا تداري ، الجواب طلقة مُسدَّدة مباشرة إلى الوتين ، والحصان الجامح في البراري سيتوقّف مستعيداً أنفاسه ، ليتبيّن ملامح الطريق ، طويلاً سيحدّق في الطفل ، لا يمكن للأطفال أن يكذبوا ..

" كلّ هذا الحزن من أين يأتي " ؟!

وسيقف واجماً ..

" هذا الإحساس بالوجوم ما عاوده إلاّ وهو في هذا المكان ، آن تذكّر الجندي الذي اُستشهد عام سبعة وستين وتسعمائة وألف خلف مدفعه ،وما كان يعرفه ،وإذ عرف بأنّه من الشمال اللاهث ، أحسّ بأنّ ثغرة تتفغر في مكان ما من الصرح " الفرس المربوطة إلى العتلة تحاول الإفلات ، وشيء ما يريد الخروج ، قد يكون نذيراً ، تسَاءَل وتردّد وأجاب ، ثمّ تسَاءَل وتردّد والتفت إلى اسماعيل ، وقال .. - وكان ذاك أيضاً في يوم من أيام الماضي الذي يبدو بعيداً اليوم - ..

- أنتم .. أنتم ليس لكم إلاّ البتر !

- وقيل وقتها بأنّ اسماعيل ما أجاب ، فقط وجهه كان يشير إلى ألم إنسان لم يُفهَم - وسيشعر حسين - ولكنّ

هذا الشعور سيكون في يوم لاحق - أنّه قال كلاماً كبيراً ، وحائراً في منتصف اللغة سيتوقف ، ذلك أنّ المياه الآسنة تُرَجّ ، والإجابات ما عادت صواباً مطلقاً ، وكأيّ شخص لم يعتد الاعتذار ؛ سيهمس لإسماعيل بحرج كبير :

- أخ اسماعيل ، ما أنا زكيبة تفرّغها ، وتعود لإملائها بما تشاء ، أنا إنسان ، نشأت على

ما أنا عليه ، وأحتاج وقتاً لكي أستوعب !

" هذا الاعتذار جاء بعد حوار حميم ، توّج جملة مشاحنات كلاميّة بين حسين واسماعيل "

مرّة أخرى ضرب رأسه بحائط الغرفة ..

" لا سلام مع النفس بعد ، لا سلام " ! وانتشر صوت نحيب عال..

هل كنت بحاجة إلى كلّما حدث لترى !؟ الحقائق كانت أمامك وأنت تماطل ! وشيرين ! آه

أيّها الغزال البريّ ! دمك ثمن المعرفة ! دمك ثمن المعرفة !

obeikandi.com

سفوح طوروس تسبح في الغيوم واللاذورد شمالاً ، وإلى يمينه ينتشر البحر بأبّهته وجلاله وجنيّاته ، العراق والحجاج بن يوسف إلى يساره ، والوطن كلّه أمامه ، ترك القرية وراءه ، وانطلق عائداً على الطريق التي جاء منها ، تاركاً جسده للحزن، مصلوباً إلى عظم واهن ، ولحية نابتة ، ولحم ناحل ، كمريض طالت رقدته ؛ ثمّ أبلى كانت خطواته تتعثّر ، لحقه الأهالي ..

- إلى أين يا أستاذ ، وأنت بهذه الحال !؟

نظر إليهم مليّاً ، القصور العام في الأشياء يدخله مناخ العجز ، غضّ بصره ..

- مكاني ليس هنا ، لقد أخطأت المجيء ، لقد أخطأت البداية ، كان يجب أن أبدأ من هناك ، كان يجب أن أعيد النظر في كلّ شيء !

وحين قرأ محمد أمين سليمان الأحداث لأكبر الشيوخ سنّاً في القرية ، هزّ الأخير رأسه الأشيب ، ومسّد لحيته بيده متفكّراً ، بينما ارتسم أسى عميق على ملامحه ، وقال : " لست متأكّداً يا بنيّ ، لقد تصرّم زمن كبير ، وما عادت الذاكرة تسعفني ، ولكنّني أظنّ بأنّ الأمر انتهى بصورة مغايرة ، نعم لقد لحقنا به ، ورجوناه أن يعود ، فغضّ بصره ، وفي البؤبؤ تلألأت دمعة ، وحين تحرّك لسانه الحيران باحثاً عن كلمة ، وتلمّست يداه طريقهما إلى بعضهما ، كان قد بدأ

يتحوّل إلى قطعة حجر ، بينما وقفنا مشدوهين والذهول يغشانا من القبضة التي كانت في طريقها إلى السماء ، قال البعض ، طبعاً هذا الكلام جاء في ما بعد ، ولا أستطيع أن أجزم بمدى صحّته ، قالوا إنّهم رؤوا طيفاً عذباً ، لعلّها كانت روحه ، هكذا قالوا ، رؤوها تنسلّ من التمثال ، وترفرف جنوباً في ما بعد ، في ما بعد سمعنا بأنّ أهله ما يزالون يبحثون عن ابنهم المفقود " .

opeikandl.com

ساعة الفجر

" ليلى قاسم حسن" نجمة مضيئة في تاريخ الحركة الوطنية العراقية إلى تلك الروح الطاهرة النقيّة هذه القصة ..

❖ لكلّ فرد الحقّ في الحياة والحريّة وسلامة شخصه .

" الإعلان العالمي لحقوق الإنسان "

- **مقتطفات من تقارير أمنيّة :**

" شوهدت المُدعوَة ليلى قاسم حسن متّجهة إلى دار المدعو " ع " الذي قُبض عليه في ما بعد ، والمُتّهَم بالانضمام إلى تنظيم محظور، يهدف إلى التآمر على سلامة الوطن "

"... وتقوم المدعوة بنشاط مُكثَّف، وتدعو إلى رصّ الصفوف لتقويض أركان النظام "..

"... ويُفضَّل من سيادتكم التأكّد من صحّة المعلومات التي وصلنا إليها، كما نرى وجوب القبض على المدعوّة ليلى قاسم حسن، لتأثيرها المتزايد في الأوساط الطلاّبية والشعبية، و... "

❖المادة الثانية عشرة : لا يُعرَّض أحد لتدخّل تعسّفيّ في حياته الخاصة، أو أسرته أو مسكنه أو مراسلته أو لحملات على شرفه أو سمعته .

" الإعلان العالمي لحقوق الإنسان"

- **ساعة الفجر :**

حبّات المطر الناعمة تتهاطل قناديل صغيرة، تعكس ضوء الساحة الشاحب في ذلك الفجر الخريفيّ البارد.. بين الفينة والأخرى تهبّ زوبعة خفيفة من الهواء، تدور حول نفسها، ترفع الغبار وأوراق الشجر المتساقطة ومزق الصحف إلى الأعلى، وبحركة زوبعية تعيدها لتغفو على الأرصفة مرّة أخرى.. صعدت ليلى الدرجة الأولى باتّجاه المصطبة، التي نُصبت عليها المشنقة متحاملة على آلامها.. حياتها تتالى شلالات متلاحقة من الصور تفترش الذاكرة للحظة، ثمّ تعبرها، لتحلّ صور أخرى محلّها، مختلطة مع مئات الأبر التي تخز جسدها.. " الفجر " ! .. تذكّرت والدها.. لابدّ أنّه في هذه الساعة يغادر القرية إلى حقله الصغير، أمّا أمّها فلا شكّ في أنّها - كعادتها - تعجن.. منذ متى لم ترَ والدتها !؟ منعوها من الزيارة منذ فترة طويلة.. " حسناً فعلوا " كانت الشيء الوحيد الذي يضعف صمودها.. حاولت أن تعيد تشكيل صورة لأمّها، لكنّ الذاكرة عجزت عن لملة الملامح المتداعية في أركانها المظلمة.. الصورة الوحيدة التي انبثقت من قاع الذاكرة بقوّة؛ كانت صورة أمّها وهي تولول

وتصرخ راكضة خلف السيارة، والناس يحاولون الإمساك بها، ساعة حضر رجال الأمن للقبض عليها " عجيب ! ذلك أيضاً حدث في مثل هذه الساعة ! .. عند الفجر!.. لماذا عند الفجر بالذات!؟ عند الفجر تشرق الشمس تطرد فلول العتمة، وعند الفجر ينهض الأطفال من نومهم؛ وبقايا الأحلام والفراشات المُلوّنَة ما تزال عالقة بزوايا عيونهم.. عند الفجر يخرج الفلاّحون إلى حقولهم الملتمعة بالضياء، وعند الفجر أيضاً يغزو المخبرون البيوت الآمنة؛ ينتزعون الأحبّة من أسرّتهم الدافئة، ويزرعون العالم قهراً مكبوتاً!.. والأخوة !.. أنا لن أراهم بعد اليوم.. يا إلهي ! هذا مرعب ورهيب ! ليس الموت هو ما يخيف، بل.. " وضعت يدها على جبينها.. رأسه يلفّه الطنين، هي تحسّ بأنّه فقد حجمه الأصليّ.. لعلّه تضخّم أو تورّم.. خدّها الأيمن ارتفع بكدمة زرقاء كبيرة، وكذلك شفتها السفلى.. جفنها الأيسر تهدّل فوق عينيها، وحبل المشنقة مجنون يبحث عن عنق غضّ، كيما تتوقّف العصافير عن الزقزقة.. جنبات الساحة خالية تماماً، والعينان المنتفختان تميّزها بصعوبة.. مجموعة قطط تجمّعت حول صناديق القمامة المتّكئة إلى زوايا الساحة، تفتّش فيها عمّا يسدّ الرمق.. يرتفع بكاء طفل رضيع من إحدى الدور المحيطة بالساحة.. عادت الصور خيولاً خائفة تتسابق هاربة في ساحة الذاكرة.. " متى ينتهي هذا الليل الطويل الذي يرزح فوق ضمير العراق النائم على معدات طاوية د.. الأطفال يتراكضون في أزقّة الكرخ البغداديّ القذرة بعورات مكشوفة، كأفخاذ غانيات الرشيد.. وجوه الرفاق تلمع بالحماس وهم يناقشون

مستقبل الوطن، والسجن صورة متكرّرة أو زمن توقّف! هل سمعت بزمن توقّف!؟ بصورة بلا ملامح.. بلا حدود.. بلا أطر.. !؟ تتشابه الأيام.. تتداخل.. ولا علامات مميّزة.. لا فواصل.. فقط جدران تحيط بك من كلّ حدب، تعزلك عن العالم الخارجيّ!.. العالم الخارجيّ !؟ ترى ألا يزال هناك شيء اسمه العالم الخارجيّ !؟ ألا يزال الناس يتنزّهون على ضفّة دجلة .. يعملون .. يتزاوجون.. يسافرون.. يتمشّون في الأمكنة التي يحبّونها .. يعيشون ضمن أسر صغيرة مُتحابَة.. ينامون في أسرّة نظيفة دافئة، من غير أن يحيط بهم حرّاس !؟ لماذا يحيط بها كلّ هؤلاء الحرّاس !؟ ألا تكفي هذه الجدران الصمّاء !؟ منذ متى قدمت إلى هذا المكان !؟ .. سنة .. سنتين !؟ هي لم تعد تدري ! ثمّ متى سترحل !؟ وهل سترحل عن هذا المكان القذر يوماً !؟ " تسير فيواجهها الحائط.. تعود فيواجهها الحائط الآخر .. " الحريّة ! كم من الدماء تلزمك أيتها الحرية ! وقرى الشمال ! أما تزال غافية بين الأشجار ، وعلى سفوح الجبال ، وفي مفارق الأودية ، تخترقها الدروب الضيّقة الوعرة، وأكواخها تلتصق بالأرض بخوف تداري القصف !؟ ألا يزال أطفالها يتراكضون في الأزقّة بقمصان مُمزّقَة، ثمّ يختبئون خلف الجرود والغول على نحو مفاجئ، ريثما تفرغ الطائرات حمولتها من القنابل.. تفرك التراب بيديها، وتمرّ بها الدفوف والمزامير، والناس بملابسهم الزاهية.. يمرّ بها البابليّون ، والأكاديّون ، والآشوريّون.. نبوخذ نصّر يجرّ خلفه بقايا أهل أورشليم.. حمورابي بوجهه الصارم يقرأ قوانينه وشرائعه.. الميديّون يحتفلون بعيد النوروز.. نهر دجلة

يعانق العراق من الشمال إلى الجنوب عاشقاً، ولفرط حبّه يسيح على شطّ البصرة فوق أكبر مساحة يمكنه أن يسيح عليها بشوق أبديّ، وفجأة يتحوّل لونه الرائق إلى الأسود، بعد أن ألقى هولاكو الكتب في النهر.. الحجّاج بن يوسف، وسيفه الذي يعمل بين الرؤوس والعمائم.. هارون الرشيد يستقبل خراج الأرض من مشرقها إلى مغربها.. المعتصم يجرّ أسرى الروم من عمورية.. الغانيات وزرياب.. أبو النوّاس.. البرامكة.. الكرخ البغداديّ.. المناذرة.. الملك فيصل والانكليز.. بدر شاكر السيّاب...

وكان يطوف من جدّ مع المدّ
هتاف يملأ الشطآن..
يا وديانا ثوري..

الفلاّحون الذاهبون إلى حقولهم في الصباح الباكر.. العمّال في طريقهم إلى مصانعهم.. المُوظّفون.. طلبة المدارس.. التجّار.. أصحاب " الجايخانات ".. الحرّاس الليليّون.. الزنج.. القرامطة.. نوري السعيد.. عبد الكريم قاسم.. سعدي يوسف يحمل أوراقه من بلد إلى بلد تلاحقه لعنة الحقيقة ".. " وحيث أنّ التهم المُوجّهَة إليك ثابتة ، والأدلّة لا مجال للطعن فيها ، وأنّك تشكّلين خطراً على الحكومة بأفكارك الهدّامة، وأنّك تنتمين إلى تنظيم محظور يهف إلى إسقاط السلطة القائمة، فقد حكمت المحكمة عليك بالشنق حتى الموت، حكماً وجاهيّاً مُبرَماً، غير خاضع لأيّ طريقة من طرق الطعن " تناقصت الدرجات التي تفصلها عن الحبل المعقود، والمدينة نائمة في أحضان ضباب

خريفيّ سابق لأوانه، جعل الأبنية تسبح في عتمة خفيفة.. يدها المرتعشة تمسح الدم الجاف المتحدّر من أنفها وشفتها.. " شفة القاضي تنفرج وتنغلق بسرعة، وهي غير قادرة على المُتابعَة، والمحامي مُهرّج كبير.. والمحكمة المُوقّرَة انتدبتني للدفـ.. وبما أنّ المُتّهمَة أنثى.. ولثبوت التهمة.. و ... أرجو من هيئة المحكمة أن ترأف بحال المُتّهمَة كأنثى.. و.. النجوم اللامعة فوق كتف القاضي تختلط بقاعة المحكمة، الخالية إلاّ من المُدّعي العام العسكريّ، ومحامي الدفاع المُنتدَب من قبل المحكمة، والنور يبهر عينيها، وهي تكاد تتداعى!" بصقت بقوّة فأحسّت ألماً شديداً في فكّها.. " تكلّمي يا قـ... وإلاّ قسمناك نصفين.. تتوهّمين بأنّك قادرة على الصمود.. هه! سنرى.. تهوي القبضة على فكّها، فتترنّح.. وتسقط على الأرض.. تقترب القدم المُحتّذية من فمها.. فتنقلب على جنبها الأيمن.. لتحتمي بالأرضيّة.. حتّى الأرض - الملاذ الأخير لابن آدم – تعجز عن حمايتها من هؤلاء الجلاوزة.. تدور الغرفة بها.. ترتفع قدم، وتهوي أخرى.. تتلوّى.. تتكوّر.. تمتدّ الأيدي إلى ثيابها لتنزعها عن جسدها.. فتمتدّ يدها إلى صدرها بحركة لا شعوريّة.. فخذاها يلتصقان بقوّة عجيبة، والأسئلة رشّاش تتلاحق طلقاته؛ أنْ من.. ومتى.. ولماذا.. وأين!؟ تصلها الأصوات وكأنّها قادمة من عالم آخ.. من أعماق سحيقة.. عبر مساحات شاسعة من اللاشعور، وهي لا تفهم منها شيئاً! حتّى لو فهمت، فهي غير قادرة على الإجابة.. جسدها يفقد الإحساس بالألم ، وتتجمّع أحاسيسها كلّها في بؤرة صغيرة.. في هذه الحال يجب أن تنصبّ

حواسك كلّها في الصمود! والصمود فقط.. العصا تقترب.. تتساقط فوق الكتفين.. وعلى الرأس أو الظهر أو البطن! وهي تحسّ بأنّها تصيب جسداً آخر.. بدأت تهوي في بئر عميقة لا قرار لها.. العصا لا تزال تتراقص، وهي تلج عوالم أخرى.. الغرفة تدور بسرعة أكبر.. وصلت إلى أعماق سحيقة.. الظلام ينتشر من حولها، وهي لم تعد تحسّ بشيء!".

" المادة الخامسة : لا يُعَرّض الإنسان للتعذيب أو للعقوبات، أو المعاملات القاسية أو الوحشيّة أو الحاطّة بالكرامة .

" الإعلان العالمي لحقوق الإنسان "

المسافة بينها وبين الحبل تتناقص، وهي تصعد درجة أخرى متغلّبة على الألم الذي غزا كليتيها.. لم تكن تعرف مكان الكليتين، ولا الحجم الذي يمكن أن تكونا عليه.. السماء تختفي خلف غيوم داكنة.. تمنّت أن ترى السماء زرقاء تزيّنُها النجوم المُتأخّرة بالرحيل لآخر مرّة، وأن ترى الشمس أيضاً.. حنين جارف إلى الشروق يمور في داخلها، لكنّ الانتظار أصبح مُستَحيلاً.. ضغطت على جبينها بقوّة لإيقاف الصداع، وبقيت درجة واحدة تفصلها عن المصطبة، الشمس لم تشرق بعد، وحبّات المطر لا تزال تتهاطل فوق الجبين، تسلك طريقها عبر الأنف إلى الذقن، تتكىء الجراح والكدمات.. " كانت مُلقاةً على أرضيّة الزنزانة.. أغلقوا الباب خلفهم.. وهي لم تعد تستجيب لدلو الماء؛ الذي كانوا يدلقونه على جسدها بعد التعذيب.. جسمها أصبح أكثر ضعفاً ولا شكّ.. أسندت ظهرها

إلى الحائط.. هالات سوداء تدور أمام عينيها، ودوائر كثيرة! دفعت الأرض بباطن قدميها على أمل أن تستوي بطولها.. مخزون المثانة يكاد أن يفلت.. والقدمان ما عادتا بقادرتين على حملها، أبقت ظهرها مسنوداً إلى الحائط؛ الذي أخذ يضغط على الجراح التي خلّفتها العصيّ والسياط.. ازداد ضغط الاحليل على المثانة.. حاولت أن تتماسك.. رنت بنظرها إلى الباب الحديديّ الصدئ.. بعد خرافيٍّ يفصلها عنه.. رفعت قدمها عن الأرض.. المثانة تكاد تنفجر.. ابتعدت بظهرها عن الحائط، لكنّ شرارة من البرق تجتاح العمود الفقريّ.. وهي عاجزة عن الوقوف.. الغرفة تدور.. حاولت أن تنادي الحارس.. بيد أنّ الأمر أعياها، وانفجر مخزون المثانة، وهبط السائل الدافئ من أعالي الفخذ! ".. استقبلتها الدرجة الأخيرة، فيما الحبل المعقود يرقص جذلاً.. الريح الباردة تداعب الجبين المُنهَك.. تعثّرت، فحاول أحد الحرّاس إسنادها.. وجاءت يده فوق نهدها.. انتفضت، وأبعدت يده بسرعة.. و.. " نظرت إلى المرآة.. إلى صدرها المشرئبّ بحلمتيه نحو العالم الغريب.. إلى الحوض المُستدير استدارة نصف القمر، والخصر الأهيف، الفخذين الطويلين الصقيلين.. ابتسمت.. أنت لا تختلفين عن الأخريات يا ليلى.. فقط سرقك النضال، فنسيت بأنّك امرأة!"... حاولت التماسك.. نهضت مُستنِدةً إلى بندقية حارس آخر.. " كان الرجل يتوسّد بندقيّته، وعيناه تلمعان ببريق مُفعَم بالحبّ.. كان يتحدّث عنها بعشق، ويداه تزحفان فوق الأخمص الخشبيّ اللامع.. أنفه كان مُتخرِّشاً من أشعّة الشمس.. وكان يسمّيها عروسه الزنجيّة.. حريّتي خلف ثقب

هـذه البندقيّـة! كـم مـن الـدروس العظيمـة نتعلّمهـا مـن أنـاس عاديين؛ نحن الذين نظنّ بـأنّ العـالم لا يتحـرّك إلاّ بنـا..!" الحبل يلتفّ حول العنق بشبق.. يضغط.. تضيق فتحته تحت ثقل الجسم المُتدلّي، ويصبح التنفس مهمّة مُستحيلة على امتداد ساحات هذا الوطن الواسع.. يتحوّل إلى حشرجة.. الصدر يكاد يتمزّق.. الحبل يضيق أكثر.. العنق يُدَقّ.. إنّها تموت.. انتهت مهمّتك أيّها الحبل.. إنّها تمو.. و..

مطر.. مطر.. مطر
وفي العراق جوع
وينثر الغلال موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد..

ذات صـباح شـاحب - إذاً - خـرج آلاف الفلاحـين إلى حقولهم ، كان العمال في طريقهم إلى معاملهم ، وعلى مضض راح طلبة المدارس يغذون السير إلى مدارسهم برؤوس مُطأطأة ، وحين أزاحت شمس وانية النقاب عن ظلام طال ، ارتسم على الحائط ظلّ متطاول لفتاة ناحلة تدلت من عنقها بحبل على نحو غبر مفهوم .

الفجر المُخضَّب بالدم

إلى " حامد بدرخان " الشاعر و الإنسان ..

ماذا نفعل ؟
إذا كان ثمّة عيد واحد للقبلة
وأعياد كثيرة للقتل
ماذا نفعل !؟

" رياض الصالح الحسين "

١ - المخاض :

عادت الخاصرتان إلى الضغط على الكليتين ضغطاً جامدًا ، والمسّ الكهربائيّ يتنقل بين الفقرات القطنية .. صرّت أمينة على أسنانها بشدّة ، وهوى باشق إلى أسفل الخانق بعد أن علا في الجوّ .. انتشرت الآهة الآدمية بين الصخور الجرداء الحادة ، وامتدّت يدها إلى جبينها تمسح عنه عرقاً غزيراً ، ثمّ تسقّف بها جبهتها ، لتحجز عن عينيها أشعّة الشمس الحارقة ، والوحشة غول يدفع إلى الجوف الرعب والخواء .. راح الشعور بالوحشة يفترس الفؤاد المُبهظ ، فأسندت ظهرها إلى صخرة

obeikandl.com

كبيرة ، وأجالت بصرها المُتعَب في الجبال الشاهقة المحيطة بها من كلّ حدب .. وبدت لها الصخور كما حدءات جارحة تعيش استعداداً للانقضاض على الفريسة .. لسانها الجاف يحاول أن يعصر نقطة من لهاثها فوق الشفاه المُشقَّقة ، والتربة تنزّ ملحاً .. وآنَ نظرت إلى الخانق العظيم ، اصطدمت عيناها بحاجز من الضباب يتصاعد بخاره نحو الأعلى ، داهمها دوار خفيف ، وكان أن تشبّثت بالصخرة بقوة .. الثيران البرية تتراكض في بطنها الناهض ، فيما أصابعها تضغط عليه !

٢ - عند الفجر :

والفجر لون رماديّ تحته ارتفعت صدى الانفجارات .. الأرض راحت تترنّح وتميد تحت الأقدام ، ثمّ تُسحَب ، والرعب كابوس مخيف ، تحته خرج الفلاحون من دورهم ، فيما كانت بقايا النوم المُغتال تنسحب على زوايا المقل .. الناس تتقاذف .. تتبعثر .. وتتكمش .. تصطدم عبر الاتجاهات الأربعة ، وأنشأت الأجساد تسّاقط .. عينا أمينة تحوّلتا إلى " كاميرا " مذهولة تسجّل في اللاشعور الخوف والموت والدمار ، والرشاش كلب مسعور يعوي فوق الصخرة ، يعزف لحناً جنائزياً ، أوتاره قزقزة الأوردة والشرايين تحت الضغط .. القطيع يتموّج ويتصادم، بينما الأطفال تدهسهم الأقدام " والأطفال في عرف اللّه - سبحانه - طيور الجنّة ، أو يحصدهم الرصاص " .. الصوت الآدميّ المتألّم يصطدم بالصخور ، ويرتدّ إلى ذؤابات الأشجار ، فأنقاض المنازل ، ثمّ يتزوبع في الفضاء العابق برائحة

الغبار والنار .. كانت الطلقات تئزّ حول الأهالي .. تشقّ طريقها عبر اللحم .. تفلح الأرض المُتربَة .. فأغصان الأشجار، وتزمجر غضباً حين تصطدم بالصخور، تريد أن تحصد الحجارة والتراب والشجر والبشر، والقطط تهرول حين تهاجمها الكلاب.. الدم ينبثق .. يشخب .. يشخب بغزارة على التراب والشجر .. على الصخور والأبواب الخشبية ، وفي مفارق الطرق والدروب الضيقة .. عبر الساحات ومساربها الموحشة .. فيما أنشأت المنازل تتقوّض وتنهار .. بدأت الدائرة المُغلقَة تضيق ، وكلّ شيء يظلم .. يخرج عن المألوف ، ويدخل جسد الغرابة !

٣- النداء :

كان نداء "هجار " حنوناً ، وأحسّت أمينة بأنّها لا تستطيع مقاومة هذا النداء ، ربّما لأنّ آدم وحواء طُردا من الجنة ذات فجأة .. تسلّقت يداه ردفيها ، فشعرت برعشة تتنقّل في أعماق الحوض ، والماء يتنقّل في حقلهم الصغير .. امتصّ نهداها رحيق اليدين وهما في طريقهما إلى العنق، وغابت في الرائحة المنتشرة من أرجاء صدره، تخترق جغرافية جسدها.. الأشجار مُثقلَة بالثمار ، والنهدان غصنان ينوءان بحملهما ، بدت السماء كإناء مقلوب يلتقي بالأرض ، ومن خلال عينيها نصف المُغمَضتين ، كان الفضاء الرحب يلتمع بالضياء .. يدها تتحسّس ظهره ؛ بعد أن أضحت بين صدره ويديه ، وحلمتها تتحسّس الغابة .. يضغط ، فيتوحّد إحساسها بالأرض ، وتتغلغل الحشرات في جذور الشجر ، الخدر يتسلّق الساقين .. يلج بين

فخذيها .. يزداد ضغطه على الصدر ، فتصرخ مسام الجسد ، تطلب المزيد .. ويتحطّم شيء ما في داخلها ، يتوحّد العرق برطوبة الأرض ، فتفقد الإحساس بالزمن ، والدم توهّجات تتوحّد بحبات التراب الملتمعة بالضوء القادم عبر أوراق الشجر ، تسقسق بضراوة في الشرايين ، تريد الانفلات منها .. الحقول ترتوي بالماء ، والعرق يتوحّد فوق الساحات ، ويتّجه نحو مسيل الصدر ، ليسقي الزيزان والخزامى !

٤ - الرشاش يكمل حكايته :

ذهنها يعيد تشكيل الصور ، رشقة مُتتالية ، ويتوقّف حسين أومري عن الركض .. ذراعاه تلوّحان في الهواء ، ترسمان دائرة من الهلع الدهش .. الدم ينفر من عينيه ، ثمّ يسقط ، وفوقه تسقط شجرة فستق.. الكلّ طيور بريّة تثب من مكان إلى آخر، والصيّاد وحش يطارد الفريسة ، يريد منبع الدم.. تمزّق الرصاصات صدر فاطمة حيدري ، فتلتفّ حول نفسها كالزوبعة ، ثمّ تهوي بفم مفتوح ، وخيط من الدم يسيل داخل الفم مع الحشرجة ، يختلط مع التراب ليرويه .. الطلقات شياطين محبوسة تتدافع للخروج ، والدخان والغبار سحب داكنة فوق سماء " هكّاري " .. نفرت دمعة من العينين تبكي الأطفال تغتالُ أمانيهُمُ الرصاص !

تدفّقت موجة الأهالي نحو المغارة تدفّق مياه السدود الحبيسة .. طوفانهم حاول الوصول إليها .. البعض وصلها ودخل، والبعض تلقّاه الرصاص بفرح وحشيّ - ذلك أنّ الرصاصة في

اللحم لا تتساءل من أين جاءت ، وفي جثّة القتيل دوماً تسكن الحقيقة - فسقط على الطريق ، والماء يهرب في شقوق الأرض وأغوارها ، كان عسكر الترك قد دخلوا القرية من جهاتها الأربعين ؛ ينثرون الموت فوق ساحات الوطن ، لعلعة الرصاص تتابع الهاربين فوق الصخور ، وبين الأحراج " يجب ألاّ يبقى منهم أحد .. كلّ شيء يجب أن يُطمَر معهم " !

والآلة حلّت محلّ الإنسان ، كانت الآلة غريبة من نوعها ، ولم تكُ أمينة قد رأت لها مثيلاً ، وإذ أخذت تزمجر بقسوة ، وهي تدفع أمامها الحجر والجثث والتراب والصخور والشجر وأنقاض المنازل .. اتّسعت حدقتا العينين ، وشهقت واضعة يدها على فمها ، حين راحت الآلة تهيل التراب على مدخل المغارة لتسدّها .. " ربّاه .. سيُخنَقون " !

٥ - منارات :

الدم يتدافع في وجنتيها ، والخجل صفة للمرأة .. حادت عيناها عن شعاع عينيه .. " أمينة أحبّك " .. شيء ما يسحب قلبها نحو الأسفل ، والركبتان تيبّستا .. نبتتا في الأرض ، وتحولّت أمينة إلى شجرة لوز .. " في موسم الكرمة سأخطبك " .. سرح خيالها في الرقصة الإيقاعية الجماعية ، وعادت إلى خزّان الذاكرة تنبش ذكرياتها عن الأعراس ، لتتوّج بها جبين هجار، وعندما قبّلها للمرّة الأولى ؛ شعرت أنّها ورقة في مهبّ الريح .. كلّ شيء فيها راح يرتجف، وطارت العصافير من صدرها تزقزق في كلّ اتّجاه !

٦ - الرنين :

على الصخور آثار أقدام بشريّة مرسومة بالدم ، وفي نهايتها امرأة حامل تستند إلى صخرة كبيرة .. عادت الأدوات الحادة تعمل تقطيعاً في جوفها .. وفتحت عينيها على آخرهما .. كانت السماء عميقة الزرقة.. أبعدت خصلة الشعر المتجمّدة فوق جبهتها بفعل العرق المالح ، والشمس سياط تلهب ظهر الصخور بعد أن علت كبد السماء.. وبدا الوادي أكثر عمقاً بعد انقشاع الضباب .. تحاملت أمينة على نفسها ، وشرعت بالسير فوق أرض تترنّح تحتها سكرى ، كانت السماء تتماوج .. كلّ شيء راح يهتز .. يتراقص ، وعيناها لم تعد تميّزان الأشياء .. الصخور تتداخل بدغول البلاّن، وأشجار الفستق، وأجمّ الجوز واللوز والسنديان، وشجيرات الخرنوب البريّ، والطريق يميد .. يتلوّى، ويتشعّب .. يتلافى الوهاد .. يضيق إلى حدّ انعدام الملامح، وتهجم عليه أغصان الشجيرات بضراوة، لتغتال الباقي منه، وتمزّق الثياب عن كتفها أو ردفيها ، وتدميهما.. الجبين عاد ينضح عرقاً .. قضمت بعض الأعشاب، فالتهب جوفها أكثر، وتعثرت !

وحين أشرفت أمينة على السفح الجنوبي، هبّت عليها ريح رطبة مُفعمَة بالعذوبة، وابتعدت قبّة السماء عن أمّنا الأرض " سننجو .. سننجو يا ولدي " ! .. سهول الجزيرة تمتدّ على طول الأفق ، تموج تحت الضوء ، وتملأ السموات بالأريج والأمل .. فتتسرّب إلى داخلها قوة سحرية ، تحيي ما بقي فيها من نسغ

رغم المخاض .. أحسّت بالرخاء ، وقلّ تغضّن الجبين ، وحينما أنشأ الطريق ينحدر بها همست " أبشر يابنيّ .. الحدود أضحت قريبة .. فقط يجب أن نتخلّص من المرصد التركي " ! .. ربتت على الجنين ، قوّست ظهرها ، وهي تنتقل من صخرة إلى صخرة .. كان الألم يمزّق رحمها مع كلّ انحناءة تدفعه للتّقلّص أو التمدّد " الألم أو الموت .. لكنّها يجب أن تصل .. الحدود أضحت على بعد أمتار " ! فجأة سمعت أمينة بكاء طفل وليد ، فنظرت إلى الأسفل بهلع .. كان البطن قد فقد ارتفاعه .. فرّت الطيور من عينيها ، وهبط قلبها إلى الأرض .. نظرت إلى الوراء .. كان الجنين على بعد أمتار .. " بنيّ " ! .. عادت تركض .. إلاّ أنّ زخّة رصاص من المرصد التركيّ حوّل الجنين والمشيمة إلى كتلة من اللحم والدم .. وشهقت أمينة ، وغطّى أفق عينيها لون أحمر.. أحمر طغى على الجبال والأشجار والصخور .. على الأرض والسماء وطيور الحنّ الفزعة، التي راحت تفرّ من صوت الرصاص .. أحمر يتصاعد من أخمص القدمين نحو قمّة الرأس .. يفيض ويفيض ، والشهب لعنات تنصبّ على الأرض .. تحجّرَ الدمع في عينيها .. رنت إلى الكتلة بذعر ، واختطفتها بسرعة ، ثمّ ارتدّت على أعقابها لتجتاز الحدّ ، فاستقبلتها رصاصة من الجانب الآخر منه ، وكان أن أحدثت ثقباً صغيراً تحت ثديها الأيسر ، فتباطأت حركتها ، وتفجّر الدم يصبغ شاهدة الحدّ .. سقطت على ركبتيها .. ابتسمت .. أطياف الأطفال تركض نحو الشمس ، ثمّ توحّدت مع الشاهد الحجريّ ، وأظلم كلّ شيء !

هـــامش : الخمـــيس ١٢ أيلـــول، أفاقـــت تركيـــا على أصوات البنـــــادق ،تدقّ الأرصفة معلنة استلام العسكر للسلطة ! "

الحرية " العدد ٩٨٣

٧ - قرار :

أنا أمينة علي ، وُلدت من رحم القهر، وعلى يديه رحلت ، لقد كنت الشاهد الوحيد على ما جرى في قريتنا ، وعملاً بوثيقة حقوق الإنسان، ناهيك عن أنّ ما حدث يجب أن يصل إلى أسماع العالم ، وحيث أنّني متّ قبل إيصاله، أقرّر ما يلي :

" أيّها الجسد الفاني، الذي تساقط على شاهد حجريّ أصبح رمزاً لقبرك ، تفاعل مع عوامل الطبيعة .. مع الشمس .. مع الريح .. مع الليل .. مع الماء ، علّ العالم يسمع ويرى .. علّم الطريق بأظافرك .. بيديك .. بأسنانك .. بالحجر !

٨ - هملت يستيقظ مُتأخّراً :

هنا إذاعة مونتي كارلو .. هنا إذاعة صوت فرنسا الحرة .. هنا موسكو .. هنا واشنطن .. ما الذي يحث !؟ نشمّ رائحة تعكّر صفو احتفالنا بأعياد السلام عام ألفين و... ! من أين تأتي هذه الرائحة !؟ من أين !؟ من أي ! من أ ! م !؟

مقتل عصافير الظهيرة

دوت الصـــرخة في فضـــاء الغرفـــة ، فـــانتفض النـــائمون مداهمين بحسّ الانخطاف ، وامتدّت يد " نيجان " إلى زرّ النور، لينتشـر ضـوء أصـفر شـاحب في المكـان ، اتّجهـت العيـون إلى " برهان " الغارق في عرقه ، كـان شـعره قـد تشـعّث بفعل التّقلّب علـى المخـدة ، وصـدغاه ينبضـان بقـوة ، بينمـا بـدت عينـاه مـزروعتين بـالخوف والانكسـار ، وراح وجهـه يعبّـر عـن رعـب مريع يعصف ببقاع النفس ، ويلقي بها في ظلال التصدّع .

وبـين دهشـة الجميـع وذهـولهم ، أسـرعت زوجتـه لتحضـر كأساً من الماء ..

- خذ ، اشرب قليلاً من الماء .

ذاهلاً وغائصًا في عالم ناء وبعيد همس :

- عيناهما ! عينا الصغيرين يا نيجان !

اعتقلها الاستغراب :

- أيّ صغيرين يا برهان !؟

وكمن استعيد من أرض الرجعى ؛ تلفّت حوله ، كانت الوجوه تتطلّع إليه مترقّبة متعاطفة ،

تنهّد بقوة ،وامتدّت يده إلى كأس الماء ، ثمّ وضع رأسه بين يديه ..

- هل تشكو من شيء!؟

لكنّه لم يجب ، فربتت على كتفه ..

- تمدّد يا عزيزي ! اللّه أعلم بالمصاعب التي تواجهك في الطريق !

وفي سرّها راح السؤال يحفر في النفس ..

" ترى ما الذي أوصله إلى البيت على تلك الحال ؟! "

تمدّد ، كانت عيناه مفتوحتين في الظلام ، وأنشأ الحدث يعيد نفسه على شاشة الذاكرة ..

الفوّهات مصوّبة إليه خلل الزجاج الأمامي ، والوجوه الصامتة ترتدي وحشية ضارية ، بينما يفصح صمتها عن عزمها الأكيد على تنفيذ تهديدها !

جليّة كانت الصور ، ضاغطة ، مخرّشة للذاكرة ، فعاد العرق ينشع عبر الجلد ، وأخذ وجهه يعكس تشنّجاً حاداً ، شفتاه انفتحتا على آخرهما آن عجزت فتحتا الأنف عن تأمين الهواء اللازم ..

" أختنق " !

همس من بين شفتيه ، امتدّت كفّه إلى عنقه مغيثة ، ثمّ هبطت إلى صدره المدفدف ، وأنشأت اللحظة الثقيلة تقترب ، ارتفعت العجلتان الأماميتان ، وشعر أنّ اللحم والعظم الآدميين يُمعسان ، اندفع جالسا في فراشه ، وتجمّدت الصرخة الخرساء فوق شفتيه ، تلفّت حوله ، لم يكن الظلام محكما ، إذ كان ثمّة نور باهت يتخلّل من خصاص الباب والنافذة ، كان الموات يشمل الموجودات ، وعادت الذاكرة تضغط .. الشاحنة تحفر الطريق الجبليّ الضيّق ؛ تاركة مدينة " العمادية " وراءها ،

بينما تسحب أشعة الشمس ذيل ردائها الغارب على السفوح والقمم وذرا الأشجار ، موقظة في النفس استعداداً غامضاً لليلة باردة ، مستمّداً - ربّما - من القمم العارية المغطاة بالثلوج ، وربّما كان قفر المكان وانعدام البشر فيه سبباً في إحساس كهذا ، أخذ " برهان " يستعيد وجوه أطفاله ، ويمنّي النفس بليلة مريحة في بيته ، علّ الوحشة الضاربة في منابت النفس تخفّف ضغطها ، وعلى مدّ النظر راحت الخضرة تعلن نفسها ملكة متوّجة ..

انقطع انتظام الصور ، وهرولت الذاكرة بلا سياق ..

الفوهات المصوّبة إليه تكشف عن تعطّشها إلى القتل ، ومن خلفها كانت الوجوه الرعناء تهدّد ، ثمّ تحرّكت الشاحنة ، وارتفعت العجلتان الأماميتان تمعسان اللحم الآدميّ ..

انتفض جسمه بقوة ، كان عرقه غزيراً وبارداً ، ومن حوله كان السكون شاملاً ، بيد أنّ هدوء المحيط لم يكن يعنيه في شيء أمام البركان الداخليّ الذي راح يعصف به ، ويعيده إلى أحضان اللحظة الماضية بكلّ حدّتها وألمها ..

الشاحنة تمضي في طريقها لاتلوي على شيء ، لم يعد يدري من أين طلعت أمامه بغتة ، فامتدّت قدمه - لاإراديّاً - إلى المكبح ..

" أيّ شيطان ألقى بها في هذه البقعة الحدودية النائية !؟"

بصعوبة بالغة استطاع أن يتفادى المرأة التي ألقت بنفسها على مقدّمة الشاحنة ، وهبط بسرعة يريد أن يطمئنّ إلى أنّه لم يصدمها ..

ولكن ماذا تفعلين هنا بحقّ الشيطان !؟

وأخذت المرأة تبربر بكلام غير مفهوم ، بينما كانت يداها تتحرّكان في محاولة لتأكيد ما تقول ، فأسقط في يده ..

" والآن ! كيف تفهم منها ما تريد ؛ وأنت تجهل الكردية السورانية !؟"

وحتّى تكتمل دارة الدهشة برز طفلان صغيران من خلف الأشجار ، تأمّلهما متعجباً ، بينما راحت المرأة تكمل كلامها ، ولم يكن بحاجة إلى كثير تمعّن حتّى يتواصل مع الفجيعة القابعة في أعماق عينيها ، كما لم تغب عنه لهجة التوسّل المنبعثة من كلامها ، فتساءل مرّة أخرى :

" باللّه عليك كيف تفهم ما تريد !؟"

- يا اللّه ! ماذا تريدين ؟ الطفلين ؟ مابهما !؟

بالحركة أقرن سؤاله ، فجذبت الصغيرين من يديهما ، ووضعتهما في يده ..

- آخذهما !؟

استفسر مستغرباً ؛ موضّحاً سؤاله بالإشارة ، فهزّت رأسها بالإيجاب ..

- ولكن !؟

انكبت المرأة على يديه تقبّلهما ، وتلألأت دموع ضارعة في المقلتين ..

" ربّاه ! هل لأمّ أن تتخلّى عن أولادها في أيّ ظرف كان!؟"

تساءل ، وراحت هي تهزّ كمّه بإلحاح ، فربت على كتفها علامة الموافقة ، ثمّ التفت إلى الصغيرين ، وقادهما نحو الشاحنة ، كان الأول في الثانية ، بينما بدا الثاني في الرابعة من عمره .. اندفعت المرأة خلفهم ملتاعة ، كان التمزّق يشم كلّ حركة من حركاتها ، وهرباً من الأسى العميق المرتسم في البؤبؤين ؛ انطلق " برهان" بالشاحنة مسرعاً ، بيد أنّ عينيه لم تستطيعا الفرار من صورتها المنعكسة في المرآة الجانبية ، ويدها الملوّحة كغصن يابس تعبث به الريح وسط الطريق .

- لقد أسلمتهما إليك ! لقد أسلمتهما إليك !

ارتفع صوته متّهماً ، فأفاقت زوجته على صوته ، واقتربت منه حيرى ، ربتت على

كتفه ، فأسند رأسه إلى صدرها ، وانخرط في نشيج مرير .

- حاول أن تهدأ ! كلّ شيء - بإذن اللّه - يمكن إصلاحه ، فقط انتظر حتى الصباح !

فضجّ صارخاً :

- أنت لا تعرفين شيئاً ! ما حدث لايمكن إصلاحه أبداً .. أ أ أبداً !

- حسناً ! إهدأ والصباح رباح !

وألقى بجسده المنهك على الفراش ..

" كيف يمكن إصلاح ما حدث ، كيف " ؟!

أخذته قشعريرة باردة ، وأنشأ يرتجف كورقة في هبوب ريح ، عادت الوجوه الصامتة إلى مهاجمته ثانية ، كانت

الفوّهات مصوّبة إليه تماماً ، جاهزة للإطلاق ، العجلتان الأماميتان ترتفعان ، واللحم والعظم يمعسان ، والدم يشخب على الطريق المعبّد ..

انتفض فاتحاً عينيه ، للحظات كان النوم قد سرقه ، لم يكن نوماً بالمعنى المفهوم ، بل كان نوعاً من الانهيار العضويّ والعصبيّ الناجم عن اشتعال الأعصاب حتى آخر مدى لها ، لكنّ اليقظة لم تكن أكثر رحمة من النوم ، كلّ شيء كان جليّاً لعينيه ، وكأنّه يحدث للتوّ .. كانت الشاحنة تقترب من الحدود ، حينما فاجأته الدورية المتحرّكة ..

- أوراقك .

تأمّل رئيس الدورية الأوراق والأختام ، وكادت الأمور أن تنتهي بسلام ، لولا حدوث ما لم

يكن في الحسبان ، إذ رفع أحد الطفلين رأسه ، فأبصر به واحد من رجال الشرطة ، وأشار إليه ، التفت الآخرون نحو جهة الإشارة ..

- من يكون !؟

- ابني .. " وأشار إلى صدره " !

تحرّك رئيس الدورية نحو العربة ، فلاح له الطفل الثاني تعالا .. تعالا .. من أنتما !؟ ومن أين أتيتما !؟

- لقد أعطتنا أمّنا لهذا الرجل ، و ....

أحسّ بأنّ البساط قد سحب من تحت قدميه ، وقال رئيس الدورية :

الآن !

توجّهت فوهات البنادق نحوه ، وأنزل أحدهم الصغيرين ، تراجع " برهان" إلى الخلف

مذعوراً ، كانت إشارة رئيس الدورية واضحة ! إنّه يطلب إليه أن يدهس الصغيرين !!

- ولكن ياربّ الأكوان ! إنّهما صغيران ، فما ذنبهما !؟ لقّم رجال الشرطة بنادقهم ..

- والآن .. هيّا !

وأشار برأسه الآمر نحو الصغيرين ، جامدة كانت الوجوه ، صلدة وعازمة ، إذّاك راح هذا

الجزء من الزمن يتّخذ معنى لايرحم ، فاستوى خلف المقود ذاهلاً ، ألف فكرة أبرقت في الذهن ، ألف هاجس ، ألقى نظرة أخيرة نحو الجنود ، لكنّه لم يجد في عيونهم سوى الوحشية والصلف والتصميم ، وأنشأ الزمن يتناقص ويضمحلّ ويدقّ ..

أمّا كيف تناقصت المسافة بين الشاحنة والصغيرين ، وكيف راحت قامتهما تختفي خلف

مقدّمتها شيئاً فشيئاً ، ثمّ كيف ارتفعت العجلتان مهشّمة الجسدين الغضّين! وكيف انفجرت الشمس وتأوّهت الجبال ، وتسمّر الزمن ! فهو لايدري! إذ كان يريد شيئاً واحداً ، أن يبتعد ، ويبتعد فقط !

بقوة شعر بأنّ معدته معلّقة في الفراغ ، وأنّها - من كلّ بدّ - تروم تقيّؤ ما بجوفها ، كانت مقدّمات الفجر تتمطّى في صلب الظلام البهيم ..

" كان يجب أن ترفض تهديدهم ! كإنسان وككرديّ كان عليك أن ترفض ! "

ضرب يده على المخدة ، بينما كان جسده يتّقد بالحمّى ، وأنشأ ألم حارق ومُبهم ينتشر من أسفل الجمجمة نحو العنق ، فأعلى الظهر ، مترافقاً بتصلّب لايطاق ، جمجمته فارغة تماماً ، فارغة لدرجة ما عاد يتذكّر معها كيف عبر نقطة الحدود إلى " قزالتبة " داخل الأراضي التركية ، ولا كيف اعتسف المسافة إلى بيته ، ضباب كثيف هبط على العينين ، وضريم اشتعل في الروح ، ذريرات الوعي انصعقت ، وأغلق عينيه للمرة الألف هرباً من يد الأمّ الملوّحة عبر المرآة العاكسة ، فداهمت الفوّهات المصوّبة إليه خلل الزجاج الأمامي الذاكرة ، أسند رأسه إلى حافة النافذة ؛ علّ الطاحون الدائرة في رأسه تتوقّف قليلاً ، ومن كلّ الجهات كانت عيون الصغيرين تجتاحه إمّا تلفّت ، وإمّا تلفّت كانت يداهما الصغيرتان تلوّحان له ..

نهض من فراشه !

- أنا قادم إليكما !

أغلق الباب الخارجيّ خلفه ، واندفع أهل الدار في إثره ..

- لن أسمح لأحد بإيذائكما ، لاتخافا !

تعثر ، تمزّقت منامته عند الركبة ، وتعفر وجهه بالتراب، الأيدي الصغيرة تلوّح له ، نهض ، الصغيران يبتسمان له ، ابتسم ، ارتفعت العجلتان الأماميتان ، بكى ، امتدت يده المرتجفة مستنكرة ، واندفع خلف صورة الصغيرين إلى الأمام !

السنونو يرحل جنوباً

- ١ -

أطلق القطار صفارته الأخيرة ايذانا بالانطلاق ، لتمتص الفضاءات الوسيعة الظمأى عويله المترع برعشات الوداع ، ثمّ تململ متحركاً ببطء ، فأغلق جوان عينيه ، وانسحب نحو الأغوار السحيقة للنفس متمترسا بجدرانها الكتيمة ، على أمل الهرب من التفاصيل المحكومة بلوعة الغياب ، فيما انسربت أفكاره خلف الأيام الهاربة ، والأحلام الموؤدة بالقلق والخوف ، وكان أن انكمش على نفسه شرنقة وحيدة متروكة ليد الإهمال !

فجأة علا صوت قرع على الباب ، فانتزعه من لجّة صمته العميق، وتراجعت الهواجس التي كانت تتزاحم في رأسه - كخلية نحل - إلى حين ، وتدافع صوت محايد :

- التذاكر ياشباب ..

ومع تآكل خيوط الشرنقة ، ارتفعت عيناه المزروعتان بأشجان تراكمت في القاع كما ظلمة كثيفة ، وثوت هناك ، وإذ شرع صوت القطار يتوحّد بوجيب القلب ، امتدت يده المرتعشة الى جيبه ، ثمّ انسلّت تجرّ بين السبّابة والإبهام ورقة حمراء مهترئة الأطراف ...

" الاسم والشهرة : جوان محمد
اسم الأب : محمد
اسم الأم : خنسي ..... "

وعلى الزاوية العليا من بيان القيد المدني انزوت صورة قديمة ممهورة كتب تحتها "خاص بالأجانب " !

" المادة الخامسة عشرة : لكلّ فرد حقّ التمتع بجنسية ما ولا يجوز حرمان شخص من جنسيّته تعسّفا ، أو إنكار حقّه في تغييرها .

الميثاق العالمي لحقوق الانسان "

تأمّل الشرطيّ الورقة بحيرة ، وقال :

- سأريها لرئيس الدورية ليبتّ بصلاحيتها ..

تقلقل القطار متحركا ، بينما أنشأ إحساس حاد بالانكسار يتموّر في الأحشاء كحرف نسلة ، ليرضّ النفس المكروبة ، وينشر الألم في الخلايا..

" الى أين أيّها الكرديّ المتعب ، الطالع - بحسب الآخرين من باطن الأرض كفطر سام ، الهابط من مجرّة أخرى - ربّما - كيما يصابوا بالدهشة أو الامتعاض من وجودك المقلق " !

" مقام اللجنة المركزية للاحصاء :

مقدّمه جوان محمد ابن محمد ، من أهالي قرية القرمانية ، التابعة لناحية الدرباسية .... علما بأنّ والدي كان يقيم في هذه القرية، كما كان جدّي - من قبل - مقيما

فيها ، وتوجد في حوزتنا سندات تمليك تعود إلى أيام العثمانيين ... لكلّ ما تقدّم أرفع إلى مقامكم طلبي هذا .. راجيا إعادة النظر في وضعي ، وإدراج اسمي في لوائح المواطنين، أسوة بغيري منهم ..

ولكم الأمر سيّدي

المستدعي / الطابع والتوقيع "

" غريب أنت ، والمحطّات موصدة في وجهك أو مرصودة ، فكيف تتدبّر المبلغ المطلوب ؛ حتّى يدرج اسمك في خانة المواطنة، وأنت العاطل أبدا ، المتبطل بالإكراه ؟! ليس ثمّة دراهم ، إذاً ليس ثمّة مواطنة ! معادلة عجيبة ! إذ هل للمواطنة أن تعامل كاللبن أو العصفر أو الصابون ! ولكن أنت لست نيزكا هوى من سموات قصيّة ، ولا كائنا مجهولا لفظه كوكب بعيد نحو هذه البسيطة ! ثمّ أنّ الحجارة لاتلد بني آدم، فلماذا يوهمونك - مع كلّ خطوة - بأنّك غصن اجتثّ عن أصله !؟ "

" إلى المستدعي جوان محمد لإبراز ما يثبت بأنّك غير محكوم ، وبيان قيد من السجل المدني ، مدوّن فيه عبارة عربي سوري منذ أكثر من خمس سنوات مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل

الختم والتوقيع "

" ومن اجتثّ من جذوره ؛ لن يتسنّى له أن يبرز ما يثبت بأنّه غير محكوم ، لأنّه - أساسا - لا يحمل بيان قيد ، يمنحه شرف الانتماء إلى بلد جُبل ترابه بعرقه ودمه ودموعه ، بلد منحه خبزه وزيتونه ونبض الأرض ، فلم يبق له إلاّ الغربة المدماة بالحنين ، ولو أنّ هذا الاجتثاث جاءك من الآخرين إذاً لعذرتهم، ذلك لأنّهم لا يعرفونك ! الملغز في الأمر أنّه جاءك من الأشقاء العرب ؛ الذين اقتسمت معهم الرغيف وعشب البرية وضريبة الدم ! والأكثر إمعانا في الالتباس أنّ ما وُسم بمروحة اليسار في البلد لم يضعك في مغازيه ، ولا كانت معضلتك - يوما - على سلّم أولوياته ! هناك في ما يسمّى بالعالم المتحضر ينسبون الكلاب إلى أروماتها ، ويمنحونها هويّة ، بينما تتكرك السجلات في بلدك ككائن أجرب ، فلا تساويك - حتى - بماشية رعاتها التي تدوّنها كشرط لحيازة المراعي ! وتظلّ الأسئلة المحيّرة فأسا معلّقة فوق الرأس ؛ أن لماذا تعمد الحكومة إلى تغيير أسماء القرى الكردية !؟ لماذا وضعت يدها الثقيلة على الشريط الحدودي ، ووهبت كثيره للفلاحين الذين استقدمتهم من محافظة الرقة ، غبّ أن غمرت مياه الفرات أراضيهم !؟ لماذا عمدت أجهزتها إلى فصل الطلبة الأكراد من المدارس والمعاهد ، وهم في مقتبل الدرب ما يزالون !؟ أيمكن لشباب غضّ التجربة أن يشكّل خطرا على أمن بلده !؟ وأيّ نوع من الخطر !؟ هم فتيان يافعون ما يزالون ! حسنا ، أين يذهبون بأنفسهم ، وأيّ مستقبل مُبهم ينتظرهم في غد قريب !؟ ولكن لماذا حينما ينادى محمد بـ : " ممّ " ينبض الغضب في الشرايين ،

حتى لكأنّ ما يعطيه اللّه للإنسان يحق لأخيه الإنسان أن يحرمه منه !؟ أهذا كلّه لأنّك ولدت كرديا ! ولكن هل تضع الفرس إلاّ فرسا !؟ فإذا تململت ، أو بدا عليك ما يشي بالتذمّر؛ لاحقتك التهم الجاهزة ، يلصقونها بك كيفما شاؤوا ، فيداخلك الإحساس بأنّك وحيد وأعزل في مواجهة أجهزتهم وشرطتهم ومخبريهم السريّين ! ألهذا أدمنت الصمت ، أم أنّك التجأت إلى عبّه لتتجنّب الكلفة الباهظة للكلام ؛ تاركا نفسك لخراب الدورة الدمويّة ، وتحوّل الأشياء ، وهي تمسخ إلى كمّ بيولوجيّ رثّ ومهمل !؟ "

" المادة الخامسة :

لا يعرّض أيّ إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو القاسية أو الوحشيّة أو الحاطّة بالكرامة .

الميثاق العالمي لحقوق الإنسان "

" قد يكون استيلاد هراوات من الأشجار ، أو حفر أنفاق في الجبال ، أو تغيير مجاري الأنهار ، أو - حتى - تجفيف الينابيع في حدود الإمكان ، لكنّ الكردي - والى أبد الآبدين - سيظلّ كرديا ! ".

خطفاً كانت المشاهد تتوالى ، وفي الحدقتين - اللتين كانتا تريان ولا تريان - انعكس الخرّوب والصرّ متناثراً على المفارق ، مغيّباً التربة الصفراء الباهتة . كان القطار قد تجاوز مدينة الحسكة ، ومن خلل الروابي التي راحت تتقهقر إلى الوراء بسرعة ؛ انبثق وجه زوجته المسكون بأسى متأبّ على الرحيل ..

" والآن يا جوان " !

لا جواب .. !

" ولكن أنت مطالب بالدفاع عن أنثاك أيّها الكردي ، إنّه ارث الأجداد ، فكيف لك أن تفعل ، وأنت عاجز عن التحصّل على عمل ! أيّ عمل !؟ "

عبر الوجنة تحدّرت دمعة حارقة كابرت طويلا ، ربما لأنّ صورة بعينها أخذت تضغط ! كانت تلك صورة ابنه الوحيد الذي انخرط في نشيج حاد ، بعد إذ أفلتت يداه الغضتان - عنوة - ركبتي أبيه !

" المادة الثالثة والعشرون:

لكلّ شخص حقّ في العمل ، وفي حرية اختيار عمله ، في شروط عمل مرضية .

من الإعلان العالمي لحقوق الانسان "

" إذاً ، هي الأزمنة المضّة تحلّ ، والوجوه الأنيسة ؛ المنسوجة من شغاف القلب ونسغ البراري ظلّت وراءك ، بعد أن كان فراقهم - في وهمك - معادلا للموت ! فهل ستعود - ولو بعد حين - إلى المحطّات الأثيرة !؟ وهل تلقاهم - الأحبّة - ويلقونك !؟ وهل تمنحك بيروت- هذه - ما منعه عنك بلدك !؟هل تسيء حقّا إلى سورية - التي تعشقها بلا حدود - عندما تسمّي الأشياء بأسمائها الكرديّة !؟ ولكن أوليس الكردي بعاشق للأرض والمرأة ، فكيف لعاشق أن يسيء إلى الأرض ؛ وهي صنو المرأة و الكرامة !؟ بيد أنّ من لم يقيّض له أن يتملّى وجه عذراء كردية ؛ مجبولة بالدم والكبرياء

والأقاحي البريّة واللوز وغسق البحر ، لن يتسنّى له أن يفهم ! أيظلّ الخوف يغشاك ؛ وأنت تحتفي بعيد النوروز !؟ ترى أكانت الحال ستختلف ؛ لو أنّك أدرت ظهرك لسورية وتركيا أو العراق، ويمّمت وجهك نحو إيران ، أم أنّ الحكومات تتشابه في كلّ شيء ، تتفق أو تختصم ، إلاّ في ما يخصّك ، ذلك أنّها - آنئذ - تتّحد في سطر واحد !؟ ولكن لماذا يحشرونك في مضائق الموت ، ليضعوك على مدار الكراهية نحو بشر أحببتهم بقوّة !؟ المهم في المسألة أن تغادر جلدك ، أن تستعير جلد الآخرين ! ليس ثمّة تثريب إن شعرت بالبرد ، أو بدوت مضحكاً أو مُنفراً ، إذ من سيكترث ! ثمّ ماذا لو أردتّ أن تدافع عن بلدك المضرّج بوحل الهزائم ، إذ ليس من المعقول أن تجثم فوق حطامه ، وكأنّ الأمر لا يعنيك !؟ لا تقل - مثلا - بأنّك ستتلقّى جوابا من وزارة الدفاع ؛ تأسف فيه لرفض طلبك بسبب ممّا ذكر أعلاه ! يا اللّه ! أهذا ممكن !؟ أيحولون بينك وبين شرف الذود عن الأرض التي ارتبطتّ بها بحبل السّرة !؟ البلاد التي تركض على أمل الإمساك بالشمس ستتركك رهين إحصاء جائر ، إحصاء قامت به حكومة وسمت - في ما بعد - بالانفصال والرجعيّة ، من غير أن تعمل الحكومات المُتعاقبة على رفعه ، ليرين على المستقبل سربال القلق والغموض والإبهام ! وليضيّق عليك - من ثمّ - في كلّ جانب ، فلا بطاقة تموينيّة تتيح لك أن تشتري جعالتك من السّكّر والرزّ وخلافه بالسعر الرسميّ ، ولا فرصة واضحة لعمل كريم ، أو للحصول على قطعة أرض زراعية ! الدروب

تنعدم كماء يضيع في الرمال ، ولغة أخرى تفرض سياقها عليك، مرّة سعيا خلف وظيفة تنأى ، ومرّة لأداء فرض دينيّ ، أو للتفاهم مع الآخرين مرّات ! وها أنت ترى في ما ترى شهاباً يهوي ، فلا يتبقّى لك - ما بين اعتكار الدّم المحرور ، والبلاد التي ما عادت لك - سوى ذاكرة تلوب في البحث عن النديّ واليانع من الأخيلة ، وتسقط في الرجعى ، لتكتظّ الجمجمة بدمامل متقرّحة ، ومن الأعماق القصيّة تنهض صورة الزوجة والابن باهتة ، فلا تتبيّن إن كان ما يعلو الملامح ابتسامة تفهّم عاجز أم عتاب ، بينما أذيال ثوب الصغير الكالحة تنكأ الجراح ، فتضرب جدار العربة بقوّة ! إنّها الطريقة الوحيدة للتعبير عن العجز والقهر ، حينما لا يكون ثمّة طريقة أخرى للتعبير !

الرأس تدور ، والقطار يدور ، والعالم يدور ...

- تفضّل ، لابأس !

مدّ الشرطي يده بالورقة ، و بهدوء أعادها جوان إلى جيبه، عبر الزجاج كانت المزارع والحقول تتداخل مع العشب البري ، وزهور النوّار ؛ يتخلّلها - هنا وهناك - شيء من ورد الخذراف ، ومع ارتفاع نفير القطار ارتفعت أسراب القطا وجموع الزرازير ، وهرباً من الأسئلة الضاغطة ؛ وضع رأسه بين يديه ، وأغلق عينيه بشدّة ، كمن يهرب من شيء ما .

مأساة ممّ

الليلة الأولى :

أنّ الراوي قال :

فلما نأى ذلك اليوم البعيد ـ الذي قاد فيه العسكر " ممّي آلان " إلى " السفر برلك " ـ عن الذاكرة الواهنة لأمٍّ أضناها الفراق، جفاها النوم، وهجرتها الطمأنينة، وعلى قلبها والعينين ران تأرّق عنيد، فخرجت إلى صحن الدار تناجي طيف وحيدها الغائب ..

"أيتها الذرى الذاهبة ـ بعيداً ـ في السماء، أيْنهُ ؟!

لا تهزي أكتافك المُتدثرة بالخضرة، لتقولي لي ـ من ثمّ ـ بأنّك لا تعرفين ! فلقد خالسَني يوماً، وانحدر نحو أقدامك على صهوة جواده الكميت !

أيتها الشعاب والغيران الغائصة في ضباب الصباح، باللّه عليك دلّيني، أين أخفيتِ " ممّ "، ولا تنكري على أمٍّ مُلوّعة سندها الوحيد وفلذة كبدها!

أيتها اللغة التي تفيء إلى الصمت، ألستِ شاهدة على أنك كنت قد أعرته أجنحتك الشفيفة لحظة أن رحل، فإذا تغافلتِ عن توسّطك في ما بيننا آنئذ، فلا تذهبي إلى أنك ما كنت الكلمات الغميسة بالأسى، حين قال.. ولكنني سأعود يا أماه!

وأنت أيّها " السفر برلك "! أما أزف أوان أوبته!؟ لكم أنت كتوم أيها " السفر برلك" كليل داج! لكم أنت مُؤلم مثلما خراج - في الجوف - ينزّ!

آه أيّها " السفر برلك"! هي الشيخوخة تخلخل العمر، مُبعثرة سنواته المُثقلة بلوعة الانتظار، وتبحث عن يدٍ حانية تفيض بين أصابعها الروح " !

مقدّمات الليلة الأولى :

وقال الراوي :

وكانت الأم تجهل بأنّ " ممّوها " قد عاد، غبّ أن دخل الليل نصفه الأكثر صمتاً، وأسبلت المساكن جفونها!

أمّا لِمَ لمْ يسعَ " ممّ " إلى أمّه أوّلاً !؟

وما الذي دفعه لأن يتسلل إلى الدار من الباب الخلفيّ، ويندسّ في فراش زوجته ؟!

هل كانت الزوجة تعرف بأنّ حماتها جالسة في صحن الدار، تناجي صورة ابنها الغائب !؟

أم أنّ " ممّ " كان يدفع الأقدار حتى ترتسمَ بالطريقة التي اتفّق وقوعها بها!؟

فإنّ الراوي لم يكن يملك إجابات شافية لهذه الأسئلة، لذلك فإنّه تجاهلها، وعاد يسهب في الكلام عمّا يعرفه ، مردفاً :

وكان به شوق عارم لرؤية والدته وزوجته، لكنّه آثر أن يؤجّل لقاء أمه إشفاقاً على عمرها، فهل كان " ممّ " يعرف أنّه

بذلك يحرف ليلته الأولى - هذه - عن مسارها، لتتّخذَ سمتها باتجاه أن تكون ليلته الأخيرة !؟

تفاصيل الليلة الأولى :

أمّا الزوجة، فتقول في معرض ما وقع من تفاصيل في الليلة الأخيرة :

ما إن دخل " ممّ " عليّ، حتى شعرت بأن ليلاً غامراً - ظلّ يضغط بثقله المُبهظ على الأعماق لسنوات سبع - ينزاح عنها، وأنّ غصناً - كنتُ قد توهّمتُ بأنّه يبسَ - شرع يُزهر فيها !

الليالي الطويلات المُتقلّبة بين قطبي القلق المُمضّ والحنين، تراجعت إلى حجمها وزمنها الموضوعيّيْن !

والجسد الذي ثار على الفوات والخسران آناء الليل وأطراف النهار هدأ واستكنّ !

والأشواق التي بثثتها له مع خفقات الأجنحة والرسائل، اجتمعت إلى بعضها جذلى، حتى لكأنّها كانت - حقاً - السبب في عودته !

شيئاً فشيئاً، كانت المُفاجأة المذهلة تلج سياقها، ومعها كانت الألسنة التي رمتني بالسوء في غيابه، والمحاولات التي رامت زعزعة علاقتي به ترتدّ إلى أصحابها مدحورةً !

قمتُ !

- إلى أين!؟ قال، فقلت :
- أزفّ البشرى إلى أمّك !

لكنّه قال :

- هي امرأة طاعنة في السنّ، فدعي البشرى إلى أن يستيقظ الصباح !

زهرة دانية للقطوف كنت، وكان " ممّ " نحلة تطوف بفوافيّ ! وكصحراء قاحلةٍ تفاجأتْ بالمطر أنشأتُ أرتشف الهتون الزاخر الأعطاف بما اختزنه من توق دافق !

كان يكرّ، فأجاريه بشغف شهويّ وأفرّ، ثمّ يناله التعب، فيتراجع مُفسحاً لي المجال لأداور وأناور وأكرّ!

وكانت ليلة سكرى بالأشواق وعبيق القبل، حتى إذا أخذ الإرهاق منه كلّ مأخذ، انقلب على ظهره، وراح في نوم عميق !

إضافات على الليلة الأخيرة :

بينما أضاف " ممّ " نفسه ما يمكن أن يعدّه الراوي إضافات تضيء ما قبل الليلة الأخيرة، وليس ما بعدها، إذْ قال :

"كانت السنوات تمرّ ثقيلة، بطيئة، ومُضنية، كنتُ خلالها رهين إحساس مرمض بأنّني عود أصابه اليباس، أمّا عدوّي الأكبر - إذا استثنيت الذاكرة - فكان يتلخّص في كلمة واحدة هي " الزمن " !

صيف أحمق، يليه شتاء أرعن، وخريف أعجف، يليه ربيع لا يشبه الربيع في شيء! فلا تسلني عن البلدان الكثيرة التي قادتني قدماي إليها ! ولا تسلني عن قطعات " الانكشارية " المختلفة التي قاتلت معها في " البوسنة " و " اليونان " و " كريت " و " قونية " !

يـا اللّه ! كـم مـرةٍ اكتسـى المـوت فيهـا شـحماً ولحمـاً ، وواجهـني، ولكـنني لا أعـرف كيـف أفلـتّ منـه ! وكـم فجـرٍ مُكحّـل بالغبشـة تفكـّرت بأنّـه الفجـر الأخـير الـذي أشـهده ! وكم شاقني توق لا يُحدّ إلى أمـي وزوجـتي ! وكـم هزّنـي القلـق عليهما في غيابي ، فيما الذاكرة تنشقّ عن إدراك حادٍ، بأنْ لا أحـد لهمـا يعتمـدان عليـه مـن بعـدي، فيتضـاعف قلقـي، وتـروح الأسئلة تقضّ مضجعي متمحورةً في متى، وكيف!؟

كلّ شيء كان يناديني ! حجارة الوادي الصماء التي ألفتني لكثرة ما اعتليتهـا ، قزعـات الغيـوم الـتي كانـت تظلّـل كوخنـا كـلّ حـين، الـثلج الناصـع البيـاض الـذي كـان يجلـّل هامـات الجبـال مـن حولنـا ، حقلـي الصـغير، وقطيعـي، وقبضـة محراثـي القديم، أنسام الروابي الوانية، وكنت قد يئستُ من العودة !

ولكنّ الفرج أعقب اليـأس على غير موعد ، فرحتُ أسـابق النَفَس إلى أهلي! أنْ أفوق العين في رؤيتها ، أو أستعير من الطير جناحيه، وأحمّل الريح البشرى، تلك كانـت ـ لحظتهـا ـ أمنيـتي الأولى والأخيرة، إلى أن وصلت، فأية فرحة " !

خاتمة الليلة الأخيرة :

ثـمّ أنّ الفجـر أخـذ يتوّغـل في جسـد الليـل البهـيم، ومـا مـن مُجيب إلاّ الصدى، ما دفع بالعجوز إلى أحضان إحباط ضاغط، كـان الـبرد قـد فعـل فعلـه في الجسـد المُهـدّم ، فاسـتدارت نحـو الباب لتدخل، لكنّها تفاجأت بما رابَها !

أيتها الآلهة صبّي غضبك على هذا الكون المُدنّس !
فمن هذا النائم في فراش " ممّ "!؟
رباه ! أية امرأة تستطيع أن تخون رجلاً كمثله !؟
وقال الراوي : ثمّ أنّها انتضّت خنجراً ، كان " ممّ " قد تركه بحوزتها ، وتقدمّت من الفراش تقدّم مرجل يغلي بحقد دفين .كان شعر الزوجة يغطي وجهه ، فلم تتمكّن العجوز من معرفة ابنها ! كلّ شيء - من حولها - كان ينضح برائحة الخيانة ، يغوص في مستنقع القذارة ، ويدفع إلى أعتاب الهذيان ، بله الجنون! عالياً رفعت الخنجر ، مُستمدّة من سنوات الانتظار والقلق قوة لا تعرف من أين واتتها ، وهوت به على صدر الرجل مرّة ، لكنّ الأتون المتقدّ في أحشائها لم ينطفىء ، ولم يسمح لأذنيها الموشكتين على الصمم بالتقاط حمحمة حصانه ، فهوت بالخنجر ثانية وثالثة ، مدفوعة بغضب أهوج يسوط الأعصاب ويفتّتها ، ثم التفتتْ نحو المرأة الشابة ، ورفعت الخنجر بكرب ، بيد أنّ الصهيل المُتألم تمكّن - أخيراً - من اختراق أذنيها ، فتوقفت اليد في منتصف المسافة ، وخفت إلى الباب بتعثّر..
ربّاه ! لو أنّ هذا العالم الداعر ينفجر !
لو أنّ هذا الزمن الموبوء يتشظىّ !
لو أنّ هذه اليمين المُخضبّة بالدم تُشلّ !
ترنّحت الأرض ، ومادت ، وغامت الدنيا في عينيها ، فتهاوت على ركبتيها جاثية !
آه أيها العالم ! أيّ خواء يملؤك !؟ وأي جدوى !؟ أيّ رجاء يُنتظر بعد !؟

كـان جـواد " مـمّ " يرفـع قائمتيـه الأمـاميّتيْن مُحمحمـاً بغضب، كمن يعتزم أنٍ يتسلق حبال الهواء، ويضرب بسنابكه الأرض، يحفرها مُحاولاً التخلص من لجامه، ومن كلّ موضع في جسده كـان العـرق ينـزّ، بينمـا كـان صـهيله يشـقّ عنـان السماء!

واااا ممّووووهه ه!

سقط الخنجر على الأرض ،وانتشرت صرخة العجوز التي تهاوت جاثية على ركبتيها في الجهات الأربع .

obeikandl.com

لذاكرة مُكتظة بالدمامل على نحو ما !

إلى غازي برهوم ..... سامحني يا أخي
فلقد كان الميراث المعمد بالدم ثقيلاً
ولم أكن أملك سوى هاتيك الكلمات
وبعض دموع ، فسامحني واغفر لي !

- **فصل الرحيل**

على البعد وفي عمق المشهد ، كانت الأقدام الخائفة تدهس أنصال العشب عند أطراف الوادي المنحدر، عند الأطراف تماماً وكصورة سينمائية أبطئت حركتها تحت سماء شزرة ، شزرة وزرقاء بشكل فظّ ، كان الرجل يهرول مُحتضناً صغيره على نحو ما ، لكنّ طرفيه ، الطرفين السفليين للصغير كانتا تتدليان كخرقة مبلولة ، وفي الخلف نحو الأعلى ، ربّما لأنّ الرجل بدأ ينحدر سريعاً نحو الوادي ، أو لأنّها كانت تركض بتثاقل ، راحت المرأة تتعثر فتعلو ضفائرها نحو السماء كجناحين كسيرين لطير مهيض ، وترتفع يداها بشكل لا إراديّ ، ترتفعان ربّما لأنّهما ترومان توازناً مُفتقداً !
وأخيراً لاح لهما نهر الأردن في الشرق مُتجهّماً لسبب ما ! وعلى نحو مباغت توقف الرجل ، وأدار عينيه الحائرتين

الـدامعتين في سمـاء مُحايـدة ، سمـاء مُحايـدة تقطعهـا رؤوس الشجيرات وذرى المرتفعات المُتكسّرة على تفاوت..

هـل أراد أن يقـول : " لا ! " أن يحـتجّ مـثلاً ، أو يحتـدّ مُعترضاً!

ألهذا أنشـأت الذاكرة تستعيد بطريقة سيئة ومتداخلة - ربّما لأنّها تفاجأت بحصار اليهود للقرية ، التي ما فتئت تتمسّك بحافة المنحدر على جزع - صورَ القتل والدمار !؟

هـل عجـز عـن شـرح الواقعـة لزوجتـه ، فتشـبثت عينـاه الغؤورتـان المحتكمتـان إلى اليـبس بالصـخور الناتئـة علـى نحـو مُبهظ ، ثمّ تابعت قدماه المتقصفتان هرولتهما بصورة أبطأ!؟

ولكـّن متى!؟ متى وأين!؟

لقد اختطف الصبي على عجل ، وأومأ لزوجته المرعوبة أن الحقـي بـي ، فمتـى وكيـف وأيـن !؟ إذْ هـا هـو يتفاجـأ بسـائل دافـيء راح يخضّـب قمـيص الصـغير فقميصـه ! وآنَ وضـع يـده الراعشـة علـى قلبـه، تمامـاً علـى قلـب الصـغير، ترنحـت الأرض تحـت قدميـه ومـادت أو ارتطمـت بمـاء النهـر في أسـفل الـوادي ، هناك.. في الأسفل حيث كانت الأرض تتدثر بخضرة داكنة!

ألهـذا - مـثلاً - راحـت الـذكريات تنفـر مـن شـقوق المخيلة، وتهوّم كخيول رامحة في عراء ليس له نهاية !؟

- **مقدّمات لفصل الرحيل :**

هناك.. قريباً من بحر فيروزي - راح يتوسّط الجهات - كـان ثمّـة فنـدق عريـق ، وهنـاك في الـداخل ، هنـاك في الجهـة

المطلة على البحر كان ثمة جناح ملكيّ ، جناح تتكلف المنامة فيه ألفي دولار لليلة الواحدة !

وفي أصل من ذاكرة الكبار كان الفندق قصراً لآل محمد علي باشا ، أمّا الجناح فكان ينضوي على غرفة نوم الملك فاروق ، آخر حاكم في سلالة ملعونة، هناك كان الملك ينام ، نام الملك - إذن - تاركاً جنوده لرمال سيناء تذروهم على أصابعها ، راحت الرمال تذروهم ثمّ تدفنهم ، غبّ رصاص ما طفق يرتد نحو النحور ، كان ذاك إبّان حرب وُسمت بالإنقاذ، حرب خيضت ضدّ المُحتلين الصهاينة ، لكنّ مكر التاريخ - بعيداً عن هذر الجغرافية - وجّه الرصاص ، أو ما يُشبه الرصاص - في ما بعد - إلى شخصه على نحو ما بجريرة ما فعل!

❖ في التفصيل على المقدمات :

هو كان ابن عائلة عريقة تقليدياً ، بيد أنّه تفاجأ بما حصل حدّ الذهول والانخطاف معاً ، وفي التوّ سقط في الرُجعى، فاستعادت المُخيّلة - في جملة ما استعادت - تعليق شقيقه الساخر " أن كفاك كذباً ، فأنت عاجز - حتى - عن استعادة قطعة أرض تخصّ العائلة !" إذاك كان خطابه الناري يُسطّر مفرداتِه - عن أرض سليبة ستُستعاد - يُسطره برماد مُطفأ ، وراح تصفيق الجمهور الهادر يطعن القلب كشفرات رهيفة !

حدث هذا غبّ استفتاء أو إحصاء قامت بها حكومة ما ، في عهد ما ، في مكان ما ، في زمان ما ، وعلى عادتها وسمتها حكومة أخرى - تلتها – بالرجعية ، من غير أن تلغي نتائج ذلك الإحصاء ، ولأنّه كان ما يزال متفاجئاً حدّ الذهول والانخطاف نسي أن ينبس ببنت شفة ، فهمس الأخرون في أذنها - أذن الحكومة طبعاً - : " ولكنّه كان في الأمس القريب رئيساً لأركان جيشكم ، فكيف سقط اسمه من لوائح المواطنة ، كيف سقط ليتهاوى كورقة خريفية تهرأت في خانة أخرى !؟ "

- **تفصيل على تفصيل :**

لقلب مجيد فصل من الانكسار إذ هي ذي فقرات العمر تشرف على خريف أعجف ! وها أنت يا مجيد صنو الجنون، فمن يُقايض عرق الحنطة بقطعة أرض في براري اللّه الوسيعة !؟

وها هم أهلوك - كعهدك بهم - يتجاهلون هذرهم عن جنونك ، ويلحقون بك كنزيف خلّفَ وراء ظهورهم عقداً ترابياً من القرى التي خوت أو تكاد !

فهل كنتَ تعاندهم ، وأنت تقايض جهد بائع جوّال - هذه المرّة - بمُربّع أرض ، مُربّع آخر في مقاطعة أخرى !؟ هل كنت تعاندهم ، أم أنّك كنت ترى إلى ما لا يرون !؟

ولكن أن تخذلك مفاصل القدمين ، وأنت لم تفرغ من قراءة كتبك الصفراء القديمات تلك ، وأن تغيب إذاعة حبيبة إلى القلب ذات فجأة ، أن تغيب كتبك القديمة والإذاعة دفعة واحدة ، فتقف على الحواف منتظراً الأفول كما قمر مُنكسر

أو كذئب كسيح ، أن تخذلك مفاصل القدمين آنئذ ، فذاك أمر جلل !

وها هو الجنى يسفر عن هباء، هباء ولا شيء غير الهباء، إذاك كانت الدروب بينك وبين السجن سالكة مُعبدّة وكانوا يلعنون الساعة التي استقرّ رأيهم فيها على اعتقالك المتوالي كحبات سبّحة ، هم يلعنون و أنت تكفر بهم جهاراً !

وها أنت ترتب للمعضلة حلاً على طريقتك ، فتلقي بمتاع زهيد - اسفنجة رثة ، وبطانية فقدت ألوانها بسبب الحياء ربّما ، أو تحت وطأة عمرها المديد ، ووسادة غادرت ريشها منذ أمد - تلقي بمتاعك الزهيد هذا فوق ظهرك ، وتقف كنبتة إثل ، تماماً كنبثة إثل بجانب جسر هرم أوكل إليه حراسة المارين من وإلى ، من بيوت متعبة مصدورة إلى بلدة فتية وخجولة!

وها هي عربة الدورية تقطع الجسر في طريقها ، تقطعه لاعتقالك للمرة الـ .. للمرة الألف ربّما !

وها أنت تنادي على رئيسها ، فتتوقف العربة بسبب من دهشتها ، لتجيبه بأنك كنت تنتظرهم !

وها هو رئيس الدورية يُخفض رأسه كالمُتألم ربّما ، أو كمن اكتشف - للتوّ - مدى التلف والحيف اللذين ألحقوه بأعصابك !

وها هو يرفع رأسه - أخيراً - رابتاً على كتفك ، ليُسرّ إليك بصوت خفيض ، وهو يغمز لك بهدوء باسم يشبه التعاطف على نحو ما :

" ألم نتأخّر على المفرزة يا رفيق مجيد !؟ "

ربّما لأنّ الأوامر - في المجتبى - هي الأوامر !

- **فصل التشظي والجنون :**

ولأنّ ما حدث كان يفوق طاقته على الإدراك ، طاش في فلوات وسيعة لا يعرف مسالكها أحد !

ولأنّ ما حدث كان موغلاً في جسد الغرابة ، راح الأهل يبحثون عن ابنهم الفقيد كالخذروف ، ولكن بلا جدوى ، أمّا كيف وقعوا عليه ذات فجأة.. وأين أمضى ذينك الشهرين الطويلين، ولماذا اعتقل الصمت لسانه تحت عباءته البكماء.. صمت مُدوّ وفارق، ولماذا كان يفيق عندما تسبل المنازل جفونها ، لماذا كان يفيق غارقاً في لجّة من العرق ، ليصرخ وينشج بحرقة ما بعدها حرقة !؟ فلا أحد على وجه التحديد يستطيع أن يُضيء تلك الأسئلة بقناديلها المُضيئة !

في ما بعد.. في ما بعد ، وبالتدريج ستستعيد ذاكرته تفاصيل كابوس لا يُحتمَل ، كابوس سيزرعه في دائرة من دهشة لم تُعْط الوقت لتفصحَ عن نفسها ، إذ كيف لقوم انقسموا شيعتين في مسألة تنتمي إلى حقل التاريخ لا الجغرافية!؟ كيف لهم أن يمحضوا بعضهم حقداً خالصاً ، حقداً شبيهاً بحقنة سمّ زعاف !؟ حقداً سيدفع بطرف منهم إلى تفريق الجمع إلى جمعَيْن ، فيصْطفُوا رهطهم ، يصْطفُونه ويحذفون الفرقة الأخرى بدلالة رصاص ضاغط، ، رصاص لم يتردّد أبداً في الإسراع نحو الصدور العزلاء كخرافة!؟

ولأنّ المكان كان ضيّقاً كخرم إبرة ، أو لأنّ العدد المحشور في مضيق الموت كان كبيراً ،لأنّ المكان ، أو لأنّ العدد .. لم يعد يعقل كيف ألقى بنفسه على عجل في وجاق النار المُطفأ ، ولا كيف ألقى زميل له بنفسه فوقه مسوطاً بالهلع والرعب والدهشة والاستنكار!

ولأنّ المكان كان ضيقاً وكتيماً ، ولأنّ الجسدين اندغما بفعل الخوف ، الخوف والضيق وأحاسيس أخرى استعصت على الفرز آنذاك ، أعياه معرفة مصدر الدم الساخن، الذي راح يُخضّب جسده في غير مكان ، ربّما لأنّه- لوهلة - توهّم بأنّه هو الذي ينزف ، ربّما لـ .. لكنّه- وإلى الآن - لا يعرف كيف نجا من الإرث المُعمّد بالكره والدم ، ولا كيف هام في البراري لشهرين طويلين.. طويلين !

ولأنّ الميراث كان ضاغطاً ، تداعت إلى ساح المخيلة مسرحية مماثلة.. مسرحية ذات فصول بغيضة ، شهدتها مدينة ما ، في مكان ما ، في زمان ما ، في قطر عربيّ ما ، ولكن بعد أن تبادل ممثلوها الأدوار على نحو مفرط !

- **فصل من سورة النساء :**

أنّه جاء في كتب التاريخ كافة ، تأسيساً على أنّهن قد خُلقن من أقمار مكسورة ونبيذ وأقحوان وعنبر ودهن لوز، بأنّ الأمهات الفلسطينيات إذ انشغلن بصناعة القنابل ، قنابل قيل بأنّها قُدّت من حجارة سجيل ، ربّما لأنّهن كنّ ينتمين إلى خير أمة أخرجت للناس ، كان ثمّة أمّهات أخريات في مكان ما.. في

زمان ما .. في قطر عربيّ ما أو أكثر، قد اقتعدن رصيفاً ما ، في شارع ما ، يعرضن عليه باقتي بقدونس- وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عليّ - بل جرزتي بابونج ، أو ثلاثاً من علب الكبريت ، أو من دخان مُهرّب ، دخان احتاس الجميع في معرفة الطريقة التي عبر بها الحدود ! مُضيفاً بمكر ربّما ، وربّما بأسى ، بأنّهن كنّ قد نسين كل ما يتعلق بتاء التأنيث الساكنة من زينة ، و قطعن نون النسوة ، تلك النون التي كانت مُتشبّثة بأذيالهنّ بعناد ، بيد أنّ رائحة طيبٍ ظلت تفوح منهنّ ، ربّما - والكلام ما يزال بيمين عبد الله - لأنّهن كنّ كالسمك ، ما يزلن يتحمّمن كل سنة مرة ، وبشيء من إسراف مُكابر!

- **فصل الهُويّة :**

ولأنّك بدوي من مقام البساطة ، ولأنّك بدوي واضح وضوح طلقة مُسدّس ، ولأنّك أقرب إلى الفطرة الأولى والسذاجة الأولى والأرض العذراء البكر ، أعياك استيعاب النظرة المطلة من عينيّ المُوظّف ، تلك النظرة المُطلة من عل ، أعياك الاستيعاب وأربكك ، بل وأخافك بعض الشيء!

ألهذا أضيف إلى مواطن خيباتك الجديبة انكسار جديد!؟ ألا يكفي الحرمان من لحم مشويّ راح يبهظ الذاكرة بغلاء مباغت ، وأنت الواهم بحلم بسيط مع كل نزول نحو بلدة ثرّة.. حلم بسيط ولكن عزيز!؟

بيد أنّ جاركم ذنون حتو رجل طيب وشهم.. رجل طيب ، نعم ..طيب وكريم ، فلماذا رمقك الموظف بتلك النظرة الشزرة المُستنكرة !؟

ثمّ أنك لم تقل شيئاً خطيراً ، فإلامَ ذهبت به المظان !؟ فقط كان الفضول يسوطك بقوة ، فسألته ببراءة طفل.. أن أين ستذهبون بالبطاقات الشخصية القديمة ، غبّ أن استُبدِلت ببطاقات جديدة.. جديدة ولامعة على نحو مُفرط!؟

ولّما جاءك جوابه بأنّها ستنتهي إلى الفرم ، فلا يبقى منها سوى نثار تذروه الرياح ، عندما جاءك جوابه ذاك ، أفلت منك السؤال بدهشة طفل ، أفلت كنابض ، تماماً كنابض مشدود..

أنت لم تكن تقصد.. مُؤكّد أنّك لم تكن تقصد ، ثمّ أنّك لم تكفر بالآلهة.. أليس كذلك !؟ فقط ، وببراءة ما بعدها براءة واجهته بالسؤال :

" ولكن لماذا لا تمنحونها لأولئك الذين يحملون بطاقات حمراء..!؟ ".

- **وللهذيان فصله :**

وكان أن جاء زمان عجيب.. زمان لا يشبه ما قبله ، ولا يتصل بما بعده ، ربّما لأنّ منكراً ونكيراً غادرا كتفيك على سبيل احتجاج عبثيّ ، أو لأنّ الأرض أخذت تتعرّق من فرط الخجل والتوتر والغضب ، وإمّا أمسكت بالأشياء راحت تتقصّف على نحو مدهش ، حتى دويبات الأرض أنشأت تنفر ،

فأن يُنكر الابن أبيه ، أو أن يطعن الصديق صديقه في الظهر ، تماماً في أسفل ومنتصف الظهر، فهذا وارد ، لأنّه تواتر مراراً على نحو ما متشابه ، مُقيت نعم بيد أنّه مُتشابه ، ولكن أن ينقسم الجمع بين هذا الفصيل وذاك ، وأن يلصّ الشقيق روح شقيقه الطهورة برصاص غفل ، لا لشيء إلاّ لأنّ هذا ينضوي تحت جناح " فتح" ، وذاك يميل جهات " حماس" ، فلقد أعيا الأمر الأم الفلسطينيّة، وقصم ظهرها على نحو مُبرّح ، فتهاوت على التخوم بين قطاع وضفة !

- **خاتمة فصل الرحيل :**

ولم يشأ أن يخبر زوجته بمصابهما الكبير، فتابع مسيره الواهن فوق أرض سكرى ، أرض سكرى راحت تترنّح ، وسماء مُتماوجة وزرقاء أو مزرقة على نحو غريب ، وأخذ النهر المتعرّج كذيل أفعى مُعمّرة يدنو ، كان النهر يقترب ، بيد أنّ السرّ الضاغط أنشأ يُثقل على فؤاده المُثخن ، لقد تأكّد له موت وحيده ، فحتّام يُخفي المصيبة عن زوجته !؟ أكثر فأكثر أنشأ النهر يقترب ، وإلى الشرق منه ، إلى الشرق تماماً ، كانت الحافة الشرقية التي تحدّ الغور - على صورة حيوان خرافيّ ضخم ، أو ضرع بقرة مُتعدّد الرؤوس - تنهض على نحو نافر ووعر، إنّها الأرض التي ترتمي إلى الشرق من نهر الأردن إذن..

" ولكن لماذا أيها الإله الرحيمة !؟ لماذا.. ولمصلحة من !؟ " مُبرّحاً كان السؤال، ومُبرّحاً كان الجواب المؤسي ، مُبرّحاً إلى

درجة استحال معها التكتّم أكثر، فالتفت إلى الوراء ، التفت ليُفضي إلى زوجته بالوشل المدمّل الذي أخفاه خفق الضلوع ، التفت ليفضي .. ، وراعه أن لا أحد كان هناك ، هناك حيث ينبغي لزوجته أن تكون ، فانصعقت ذريرات الوعي التي أعياها اكتناه الموقف ..

" ولكن هذا - على نحو ما - غير منطقي.. غير منطقي وغير عادل! "

راحت الجهات تميد ، وهبط قلبه نحو القدمين ، نحو القدمين تماماً ، وبهلع مُتوجّس تململت عيناه في محجريهما لائبة، فهناك.. هناك عند المنعرج ، هناك حيث تُغيّبُ شجيرات قصيرة وكثة ملامحَ الدرب، كان ثمّة جسد مُتكوّر.. مُتكوّر ومُتكوّم على ذاته بشكل فظيع ، ربّما لأنّ الألم الذي ناله إثر الرصاصة الغادرة، ربّما لأنّ هذا الألم كان مُبرّحاً ، وفي المسافة التي بدت - حينئذ - شاسعة وباهتة تلوّنَ المشهد بأحمر شبيه بالحناء.. أحمر كالحناء ولزج ، فخوّض في الماء إلى الركبة ، وكم شعر - إذاك - بالعطش.. بالعطش والاختناق ، وعلى نحو ما تهاوى ببطء نحو الأسفل ، تهاوى بكرب ، وأفلتت يداه جسد الصغير البارد ، أفلت جسد الصغير الغضّ والبارد ، ليرتفع في الأمداء عواء إنسانيّ مديد.. مديد !

لمقام النوى

- **صلاة لمقام التشوّف :**

من شمال لاهث ومُغبر جاء ، ومن سورة النساء في مشرق الجهات انبثقت ، وفي مُنتصف المسافة التقيا ذات مُصادفة محض ، كان المقعد الخشبيّ - في تلك الزاوية النائية من الحديقة - يشكو التوحّد في ذلك الضحى المُرهق بحرارة صيف قائظ ، وكانت بتلات النبات قد أحنت أعناقها من فرط التعرّق ، غير عابئة بسقسقة الماء الوانية الضجرة في بحرة المركز ، فرح بها ، ولم تكن أقلّ منه نعمى !

سأضمّها إلى صدري ! - قال - وأبوح لها بأشواقي ! سأضع رأسي على كتفه ! وسأمسّد على شلال شعرها الحريريّ ! وسأغفو على إيقاع أنفاسه العابقة برائحة تبغه الرخيص ! على قلق انتظرَ ..

ولكنّه هو الرجل ، وهو المُطالب بالبوح ! تفكّرت ، فيما أنشأ أسى مُبرّح يفرد قلوعه على وجهها المغسول بالشجو والفتنة والغوايات المُلغزة ..

عاتبة كانت ومُوزّعة ، فيما كان التردّد والحيرة يشمان حركاته !

همّ بالبوح ، ثمّ أحجم تحت ضغط من التربية الزمّيتة ، وحالت صورة المرأة في عالم مُخلّف بينها وبين بوح شفيق كان

يتخلّق على نحو ما ، وعلى نحو ما بدا بعيداً ومهزوماً كراية مُنكسرة ، فيما بدت هي غاضبة ومهيضة ومُهانة !

انتظر وانتظرت ، ولمّا أعياها تفصيل المسألة ، وأثقل الانتظار على أعصاب يفثها الحنين واللايُسمّى من الأحاسيس ، ولمّا أرهقه الصمت إذْ تسيّد المشهد ، نهضت بتثاقل غصن مُثقل ينوء بثمار ناضجة ، وتلجلج في جلوسه ، من غير أن يسعفه وقوفه المرتبك بمخرج !

كليمة غادرت المكان على انفطار ، يعتسفها شجن مُتأبّ على الرحيل ، فراحت تداري دمعة حرّى ، أخذت تلوب باحثة لنفسها عن مجرى ! وبدا رهين غضب مُبهظ ، لا يعرف له تصريفاً ، فمضى وهو يكتم غيظه المُبهم!

- **فصل الرحيل :**

من جنوب منذور للهاجرة والنسيان كان قد جاء ، هناك حيث كان حسّ الإثم الدينيّ وحسّ العيب الاجتماعيّ يعتصران الحياة من المعنى والقيمة والمعيار ، فيما حملتها رياح الفقر والحاجة من مشرق الجهات ، بعد أن غادرت بلدتها الصغيرة النائية ، وكانت موسكو مرفأهما الجديد والصارية والمنارة والسفين!

كانت هي قد أقسمت ألاّ تقارب عالم الرجال ، غبّ تجربة زواج مريرة ، انتهت إلى طلاق بائن ، وخلفتها للوحشة والتوزّع وارتطام الجهات ، وكانت الطفلة التي تركتها وراءها في

حضانة أمّها هناك ، ريثما تتدّبر أمورها ، جرحاً راعفاً ينزف صديداً وألماً لمّا يتوقف !

أمّا هو فكان مسكوناً بشوق قديم إلى امرأة مُضوّآة بالمسك والعنبر ، امرأة تختصر في سناها سحر النساء وفتنتهنّ التي لا تبارى ، امرأة حلم ربّما لأنّ المسألة بمُجملها كانت مُحتكمة إلى كبت مُتوارث ، وهي كانت - كلبوة جريحة - تتحسّس بغريزتها أن لا مفرّ !

كيف غادرها حذرها !؟ هي لم تعد تدري ! وكيف غادره خجله الذي رافقه عمراً كظلّ بسبب من تربيته تلك ، هو الآخر لم يعد يدري !

هناك على ضفاف الفولغا غيبتهما الأشجار الظليلة في عبّها ، هو ما كان ليتلمّس جمال الخريف الروسي من غيرها ، هناك حيث تتزيّا الأوراق المتساقطة بألوان لا تحدّ ، وتتطاول قزعات من الغيوم على صفحة سماء عميقة الزرقة ، كان الكرملين بشموخه شاهداً على حبّهما ، ذلك أنّهما طافا بمحيطه مرّات ومرّات ، وحول المُربّع الذي يضمّ رسّامي الرصيف ، وثقَ فنان يابانيّ علاقتهما في لوحة حيّة خالدة ، ولأنّه لم يعتد التعبير عمّا يجيش في الحنايا من أحاسيس ، انتظر إلى أن غيّبتهما الغابة في كثيف ظلالها ، ليطبع على شفتيها قبلته الأولى ، ولأنّها ابنة ثقافة أخرى علّمته - ذات ليلة صيف لا تتكرّر - كيف يُعبّر الجسد عن جذاذاته وبراكينه الكامنة ، وكانت الرحلة إلى الحانات المُتناثرة في الأزقة الخلفية تجربة لا تنسى بالنسبة لهما ، الفودكا الروسية

التي لا تدانى ، والوجه الآخر لمدينة صاخبة - مرّ عليها الكثير - أنشأتا تتكشفان له ، أمّا زياراتهما المُتوالية لمسرح البولشوي فستظلّ مطبوعة في مدخل قلبيهما كما وشم !

لكنّ الدمعة الحرّى كانت جاهزة ، لأن تتلمّس طريقها عبر وجنتها نحو الذقن ، فلقد أنهى دراسته ، وآنَ موعد إيابه إلى الوطن ، صامتيْن وعاجزَيْن عن النظر في عيني بعضهما وقفا في أرض المطار ، كانت نظراتهما تمرّان بالأشياء من غير أن تریاها !

هل سيُقيّض لها أن تراه ثانية !؟ هجستْ ..

ولأنّ الجواب أعياه - هو الآخر - صمت ..

وعندما أزفت لحظة الوداع مُمتقعة وحيرى - كدجاجة تفاجأت بظلّ طير فوق مُتناثر فراخها - بدت ، فهل أخذت الطائرة - إذاك - قلبها معها إلى الأبد !؟

أمّا اليوم فإنّ أهالي موسكو ما يزالون يتساءلون عن سرّ دمعة مُقيمة استوطنت عيني امرأة ، كانت قد قدمت من مشرق الجهات ذات هبّة ريح ربّما ، وما يزالون يهزّون رؤوسهم بأسى ، آنَ تقع أعينهم عليها ، وهي ما تنفكّ تتردّد على الأمكنة والمعالم والزوايا التي لمّتهما في أمس قريب راح ينأى !

- **لذاكرة الوجع :**

عندما وقعت عيناه عليها ، أحمر وجهه حتى الأذنين ، وارتفع وجيب صاخب في الوتين ، فيما عرى وهن مُفاجيء الركبتين ، كانت صفرة شاحبة قد علت ملامحه البليدة ،

تماماً كما حدث له حينما رآها في المرّة الأولى ، كان ذاك قبل أربعين عاماً ونيّف على وجه التقريب !

كان هو قد قصد سوق الخضار بهدف التسوّق ، وهي مهمّة أسندها لنفسه ، لا لشيء إلاّ ليشعر بأنّه حيّ ما يزال ، وهناك عند القفص الصدريّ نحو اليسار شعر بالوخزة ذاتها ، تلك التي ترافقت برؤيته لها للمرّة الأولى ، إذاك هتف هاتف مُبهم بأنّها هي .. ! هي من يبحث عنها ، لتتدغم بفقرات العمر كصنو للروح أو - ربّما - كوشم!

وداخله حرج من نوع ما كما في أيام الشباب تلك ، ذلك أنّ عكازاً مقيتاً كان قد انضاف إلى " كاركتره " بعد آخر لقاء لهما ، لقاء وقع في مكان ما .. في زمان ما ، لكنّه لم يعد يتذكّره ، ناهيك عن ألم ألمّ بالمفاصل ، واشماً مشيته ببطء لافت !

وهشّت هي الأخرى لمرآه ، فتدوّر الوجه الذاهل ، ليُفصح عن ابتسامة ناحلة ، وشت بجمال راح يُغرّب تحت فأس السنين الظالمة المُتصرّمة لا تلوي على شيء !

عن الأحوال سألها وعن الأولاد والأحفاد ، فأنّت كقطة ركلتها قدم ، وهزّت كتفيها بارتباك أخفق في التعبير عن اللامُبالاة ، وكم بدت - إذاك - فاتنة وغرّيرة ، لتذكّره بماضيات الأيام الجميلة ، وما كان أقلّ منها ارتباكاً وخيبة في أجوبته اللاهثة المُتقطعة ، التي راحت تشكو قطعاً في السياق المُبهظ بالذكريات !

وتمنّى وتمنّت ، أن تطول لحظة اللقاء كانت تلك مُنتهى الأمنيات ، بيد أنّ التسويف والتباطؤ والإرجاء والمُماطلة لم تنجح جميعها في تأخير الفراق إلاّ بحدود !

يا قلب دع عنك المُكابرة ، والحق بها ، فأنت تعرف بأنّها ليست مُجرّد امرأة فحسب ، بل إنّها امرأة وحقبة وعمر ! قال ، لكنّ قدميه - ولسبب عجز عن تأويله - لم تستجيبا له في يبس ..

إلى أين أيتها الحمقاء !؟ عودي إليه .. إلى قلبك ، فالعمر انسرب كثيره على نحو مُخاتل ، ولم يبق لك إلاّ التشوّف الجارح ومظلة من الحنين والوجع والحزن والخيبة ، ناهيك عن الإخفاق في الإمساك بالزمان الهارب المتأبّي على الاصطياد !؟

ضمّد أحاسيسك في حضنها الدافىء يا رجل ، فالقادم لم يعد يُوازي الذي ولّى وانقضى ، ضمّد أحاسيسك ، إذْ ماذا يساوي عمر من الانتظار المُدوّي والحسرة ، الحسرة التي محضتك حزناً رهيفاً وكاشفاً !؟ قال لنفسه هامساً..

اندسّي في عبّه كقطة مُبتلة ، فإذا لم يُقيّض لكما أن تتعانقا كجدولين زماناً ، فلا تكوني كرماد بارد غادره ناره والسمّار ، وخلّفوه للتوزّع ، وهلمّي لمُعانفته عناق ذئبة جائعة !

املأ الفجوة بين الانتظار وكهف التدرّن بها ، ولا تتحرّج من الاعتذار ، وإلاّ فكيف لك أن تشبع ما بك من جوع إليها !؟ جوع صار يُقاس بما خلّفه في الروح من هتك وتلف !

انزعي عنك قناع الكهانة ، وتطاولي نحوه كسحابة أو كمزنة أو - حتى - كنقطة ماء تدلف نحو جرن حجريّ ،

فنقطة الماء وجدت لنفسها طريقاً في الصخر الأصمّ ، ولا تستسلمي لخلوّك المُؤلم منه !

ولأنّه لم يعد ثمّة ما يُقال في لجّة المقام تناءت على مهل وانكسار ، ولأنّه لم يعد ثمّة ما يُقال وقف في مُنتصف المسافة كحصان أشهب أجرب وعجوز ، وعلى نحو ما بدت أكثر انحناءً وهرماً وحزناً ، وعلى نحو ما بدا عارياً كشجرة مُستوحشة فاجأها الخريف في مُنتصف المسافة !

الآن ستلتفت .. قال .. ستلتفت قبل أن تبلغ المُنعطف ! الآن سيلحق بي .. قالت .. ولن يتركني للوحدة والألم المُبرّح في غيابه! الآن .. قال ! الآن .. قالت ! وعندما غيّبها المُنعطف ذابلة مقهورة لا تلوي على شيء ، تماماً عندما غيبّها المُنعطف خلف زواريبه، استشعر على نحو مُبهم وأكيد بأنّ يومه لن يلاقي غدها ، فأثقل عليه الشجن ، وعلى نحو ما بدا العالم أكثر وحشة ، وعلى نحو مفاجيء ترنّح مُتهاوياً ، فيما كانت شمس وانية تميل جهات الغروب مُؤسّسة لوداع مؤس !

الفهرس

- آن للبحر يعود ماؤه ص٦
- ساعة الفجر ص١٨
- الفجر المخضب بالدم.....ص٢٧
- مقتل عصافير الظهيرة.....ص٣٥
- السنونو يرحل جنوباً.....ص٤٣
- مأساة " ممّ " ص٥١
- لذاكرة مكتظة بالدمامل على نحو ما ص٥٨
- لمقام النوى.....ص٦٩

obeikandl.com

صدر للمؤلف

- أغنية منتهية بالرصاص قصص ١٩٨٦
- عن اختفاء العامل يونس قصص ١٩٨٨
- الطوفان قصص ١٩٩١
- فوضى الفصول رواية ١٩٩٧
- مأساة ممّي آلان قصص ٢٠١٠

oberkandl.com

obeikandl.com